أئمة الأدب ٧

٣

ابن العميد

بقلم

خليل مردم بك

عنيت بنشره

مكتبة عرفة بدمشق

١٣٥٠ هـ

١٩٣١ م

مطبعة الاعتدال ❀ بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

نقدم الى الادباء الرسالة الثالثة من رسائل ائمة الادب ولا يسعنا الارفع الشكر الى الشباب الذين تهافتوا على منهل هذه الرسائل السائغ .

وقد كان في نية استاذنا الكبير خليل بك مردم ان يدرس ابن العميد والصاحب ابن عباد في رسالة واحدة ولكنه آثر افراد كل من الوزيرين برسالة واحدة ليفي كلا منهما حقه من الدرس والبحث .

الناشر

ابن العميد

(٣٠٠ ؟ — ٣٦٠)

من مبلغ الاعراب اني بعدهم   شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملكاً متبدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما   رد الاله نفوسهم والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما   واتى فذلك اذ اتيت مؤخرا
بابي وامي ناطق في لفظه   ثمن تباع به القلوب وتشترى
قطف الرجال القول وقت نباته   وقطفت انت القول لما نورا

« المتنبي »

هذا هو ابن العميد الذي يذكر المتنبي ما سمعت من صفاته، ولعل المتنبي لم يصدق في مدح انسان، اكثر من صدقه في مدحة لابن العميد، حين خاطبه بهذه الابيات، فانه مدحه بما فيه، مبتعداً عن الكذب وان لم يبتعد عن المبالغة · فابن العميد له صفات كثيرة ونواح متعددة، فلقد كان عالماً اديباً، كاتباً، شاعراً، لغوياً، مؤلفاً، انتهت اليه الزعامة في الادب وفنون البلاغة، حكيما طويل الباع في الفلسفة والنجوم و(علوم الاوائل)

سياسياً محنكا داهياً ، ساس امور مملكة بني بويه احسن سياسة في مدة وزارته الطويلة ، قائداً شجاعاً موفقاً ، قاد الجيوش وحارب في فتح البلدان وقمع الفتن ، عاقلا حليما كريماً . فهو حسنة من حسنات القرن الرابع ازدان بها تاريخ الادب العربي . والكتابة على مثل هذا الرجل تستدعي عناء وتثبتا واحاطة باطراف الموضوع مع فقد آثاره وقلة المراجع وتشتت المظان .

ولقد حاولت — والشأن كما علمت — ان اكتب على كل ناحية من نواحيه واشرح العوامل التي هيأت عظمته . وانا بعد اشد اهتماماً بناحيته الادبية ، وعنايتي بغيرها انما هي على سبيل الاحاطة بالعناصر التي كونت ادبه ، واحتفالي بنثره اكثر من احتفالي بشعره لانه امام في الكتابة وصاحب طريقة في الانشاء حولت الكتابة العربية الى وجهة غير وجهتها الاولى وكانت اطول طرائق الكتاب عمرا وان لم تكن احمدها اثرا .

عصر ابن العميد

عاش ابن العميد في القرن الرابع وهو القرن الذي ظهر فيه وهن الخلافة العباسية جليا وطوي علم وحدة المملكة الاسلامية وانتقصت من اطرافها بالانتقاض والسلخ والاستقلال والتغلب .

لم يكن للمسلمين وحدة سياسية إلا في دولة بني امية فقد كان الخليفة نافذ الامر في جميع الاقطار التي فتحها المسلمون . فلما قامت الدولة العباسية انسلخت عنها الاندلس فكان ذلك اول صدع في الوحدة الاسلامية وتلا ذلك ظهور الادارسة بالمغرب الاقصى في منتصف القرن الثاني .

وفي القرن الثالث ظهرت دولة العلويين بطبرستان والسامانيين في خراسان وتركستان والفاطميين في المغرب وبني طولون في مصر .

وفي القرن الرابع استقلت الدولة الحمدانية بالشام والدولة الغزنوية في الافغان والهند والدولة الزيارية بطبرستان والدولة الاخشيدية بمصر وظهر بنو بويه في بلاد الديلم فملكوا بلاد فارس وزحفوا على بغداد وجعلوها تحت نفوذهم فلم يبق للخليفة على اكثر

هذه الدول غير الاسم والرسم.

انشقت تلك الاقطار عن وحدة الخلافة السياسية وقام فيها امراء منهم عرب ومنهم غير عرب ولكن دين الجميع كان الاسلام ولغة الدولة كانت العربية. فاصبحت كل عاصمة تنافس الاخرى في اظهار معالم العمران، واضحى كل قصر فيها يبذل مابوسعه ليحاكي قصر الخلافة في بغداد فراجت سوق العلم والادب ولقي الشعراء في هاتيك القصور ظلا ظليلا وعيشا رغدا ونبغ من فحولهم امثال المتنبي وابي فراس الحمداني وابن هانيء الاندلسي وبلغ من احتفال الامراء بالشعراء ان الصاحب ابن عباد دعا المتنبي لزيارته واشترط على نفسه ان يشاطره كل مايملك فلم يرد عليه المتنبي ذهابا بنفسه.

وكذلك فقد نبغ في ذلك القرن جمهرة صالحة من الكتاب امثال ابن العميد والصاحب ابن عباد و بديع الزمان الهمذاني وابي بكر الخوارزمي ومن اعلام الادب واللغة امثال ابي الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني وابي هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين وابي علي القالي صاحب كتاب الامالي والازهري صاحب التهذيب وابن فارس صاحب المجمل والجوهري

صاحب الصحاح وغيرهم ·

وهكذا فقد كان مظهر القرن الرابع خبو جمرة العرب سياسيا ونضوج ادبهم وسيادته على جميع الشعوب التي دانت بالاسلام · فما خسروه في ميدان السياسة عوضوه في ميدان العلم والادب · ولقد اشترك في اقامة بنيان هذا الادب جميع الشعوب التي دانت بالاسلام وكان من امضاهم همة واطولهم باعا في هذا العمل الشعب الفارسي الذى ينتمي اليه ابن العميد · والدولة البويهية التي كان ابن العميد اكبر وزرائها كان لها يد بيضاء على الادب العربي وهي دولة فارسية بل مظهر من مظاهر النهضة الفارسية في القرن الرابع · فمن ذلك الشعب العريق بالعلم والمدنية وفي تلك الدولة الفتية بزغ نجم ابن العميد في سماء الادب العربي ·

واذ ان ابن العميد احد اعلام النهضة الفارسية وكبير وزراء الدولة البويهية وجب ان يلمع الى تلك النهضة ويعرف بهاتيك الدولة ·

النهضة الفارسية

شارك الفرس العرب في الحكم منذ قيام الدولة العباسية وظلوا يحكمون باسم العرب وتحت سلطتهم كعمال الى ان وقعت الفتنة بين محمد الامين و بين اخيه عبد الله المأمون ولدي الرشيد وظهر المأمون بمعونة الفرس على الامين و كان ذو اليمينين طاهر ابن الحسين احد قواد المأمون الذين ابلوا البلاء الحسن فكافأه المأمون بان جعله اميراً على خراسان و بقيت الامارة في اعقابه الى ان خلفهم الصفارية فالسامانية .

وفي ايام المأمون نظمت اول قصيدة فارسية بعد الاسلام وذلك ان المأمون زار مدينة مرو فقام بين يديه شاعر فارسي اسمه عباس المروزي ومدحه بقصيدة فارسية .

على ان الحركة الانفصالية ظهرت في القرن الثالث وازدادت قوة في القرن الرابع فكانت بلاد فارس تجد في التخلص من سلطة الخلافة العباسية ثم يمتد نفوذها السياسي الى العراق ايضا وقد قام بها اذ ذاك دول لها كيان مستقل كالدولة السامانية في خراسان و تركستان والزيارية في طبرستان والبويهية في فارس والعراق

وغيرهما والغزنوية في افغانستان والهند واستمر الروح القومي في الانتعاش كما ان اللغة الفارسية استعادت حياتها واخذ الادب الفارسي ينمو ويتقدم .

ولعل اشد الامراء تعصبا للفرس مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية في طبرستان فقد ورد في تجارب الامم : انه كان في نفسه ان يملك بغداد ويعقد التاج على رأسه ويعيد ملك الفرس فعوجل بالقتل وانه صاغ تاجاً عظيما ورصعه بالجوهر وكان يجلس على سرير ذهب قد جعل عليه منصة عظيمة وتفرد بالجلوس عليه وجعل دونه سرير فضة وعليه فرش مبسوط ودون ذلك كراسي كبار مذهبة لاصحاب المراتب وكانت كتبه ترد على ابن وهبان ان يعد له ايوان كسرى منزلا اذا تقدمه الي الحضرة ويعمره ويعيده كهيئته قبل الاسلام .

وكان مرداويج يحتفل باعياد الفرس احتفالا عظيما ، من ذلك احتفاله باحدى ليالي الوقود التي تعرف بالسذق ، فقد روى عنه انه امر بجمع النفط والنفاطين والزراقات ومن يحسن معالجتها واللعب بها وتقدم باعداد الشموع العظام ولم يبق جبل مشرف على اصبهان ولا تل ظاهر الا عبيت عليه الاحطاب والشوك

كهيئة قصور عظيمة وضبيت بالحديد وجمع مايزيد على الفي طائر
من الغربان والحدأ وعلق بمناقيرها وارجلها الجوز المحشو مشاقة
ونفطا وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع واساطين عظام منه
لم ير مثلها ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال ورؤوس
اليفاعات وفي الصحراء وفي المجاس على الطيور التي تطلق ثم عمل
له سماط عظيم في الصحراء وجمع فيه من الحيوانات والخيل والبقر
والغنم الوف كثيرة وزين واحتشد بما لم تجر العادة بمثله .

ومن الغرائب ان الامراء العباسيين انفسهم كانت تضيق
بهم بغداد فيلجئون لخدمة هذه الدول الفارسية كأبي محمد عبد
الله بن عثمان الواثقي من اولاد الواثق بالله امير المؤمنين قال
الثعالبي : « ومن خبره انه كان نزع باهله الى الحضرة ببخارى
راجياً ان يحل بها محل اقرانه من اولاد الخلفاء وامثاله او يقلد من
احد عمل البريد والمظالم ببعض الكور ما يصلح من حاله » وكذلك
وزراؤهم كأبي جعفر محمد بن العباس بن الحسن وزير المكتفي
والمقتدر قال الثعالبي : « رمت به حوادث الدهر الى بخارى
فأكرم مثواه كعادة الملوك السامانية في معرفة حقوق الناس وابناء
النعمة واغذياء الرياسة لاسيما الجامعين الى كرم النسب شرف الادب » .

وفي ظل تلك الدول ظهر ادباء الفارسية في الشعر والنثر مثل الرودكي المعدود اول شعراء الفرس في الدولة السامانية والمتوفى سنة (٣٠٤) والدقيقي الشاعر الفارسي الكبير الذي بدأ بنظم الشاهنامة (الباذة الفرس) ثم اتمها الفردوسي . والبلعمي الذي ترجم لمنصور الساماني تاريخ الطبري الى الفارسية .

ثم تتابع على اثر اولئك شعراء كثيرون منهم من نظم بالفارسية ومنهم من نظم بالعربية ومنهم من نظم باللغتين كقابوس ابن وشمكير وابي حسن شهيد البلخي وابي بكر محمد بن علي الخسروي السرخسي وابي عبد الله محمد الجنيدي . وقد جرت العادة اذ ذاك ان يمتحن الشعراء بترجمة الشعر من الفارسية الى العربية ومن العربية الى الفارسية كما جرى لبديع الزمان الهمذاني بحضرة الصاحب ابن عباد في اول زيارة له .

واقبل بعض الادباء على ترجمة الشعر الفارسي الى العربية كالبنداري الذي اختصر الشاهنامة ونقلها الى العربية وكابي الفضل احمد السكري المروزي الذي كان مولعاً بنقل الامثال الفارسية الى العربية وله مزدوجة ترجم فيها امثالا للفرس ذكر بعضها الثعالبي في الجزء الرابع من يتيمة الدهر اولها :

من رام طمس الشمس جهلا اخطا   الشمس بالتطيين لا تغطى

وله غير هذه المزدوجة امثال ايضا تجدها في يتيمة الدهر (ج ٤ ص ٢٣)

ومثل المروزي ابو عبدالله الضرير الانبوردي له قصيدة ترجم فيها امثال الفرس اولها :

صيامي اذا افطرت بالسحت ضلة   وعلمي اذا لم يجد ضرب من الجهل

تجد بعضها في يتيمة الدهر (ج ٤ ص ٢٥) وهناك قصيدة في الامثال ذكر بعضها الثعالبي في اليتيمة (ج ٤ ص ٢٤) وذهب عنه اسم صاحبها .

ولقد بدأ الطابع الفارسي يظهر على الشعر العربي في اللفظ والمعنى قال ابو علي الساجي بمدينة مرو :

بلد طيب وماء معين   وثرى طيبه يفوق العبيرا

واذا المرء قدر السير عنه   فهو ينهاه باسمه ان يسيرا

قال الاستاذ براون في تاريخ آداب اللغة الفارسية يريد الشاعر بقوله « فهو ينهاه باسمه ان يسيرا » يقول له مرو ومعنى مرو بالفارسية لا تذهب . وهناك ابيات يظهر فيها الاسلوب والخيال الفارسيان كقول ابي العلاء السروي في النرجس :

حي الربيع فقد حيا بباكور من نرجس ببهاء الحسن مذكور
كانما جفنه بالغنج منفتحـا كأس من التبر في منديل كافور

وقوله في التفاح :

وتفاحة قدهمت وجدا بظرفها فما شعر ذي حذق يحيط بوصفها
اشبه بالمعشوق حمرة نصفهـا وبالعاشق المهجور صفرة نصفها(١)

ومهما يكن من شأن هذه النهضة فان اللغة العربية كانت المسيطرة عليها منذ فجرها الى العصر الذي عاش فيه ابن العميد وما بعده فقد كانت لغة العلم والادب والحكومة والطبقة العالية في فارس وقد اخلص الفرس لها و بلغ من اخلاص امرائهم لهـا وللاسلام ماذكره الاستاذ براون في تاريخ آداب الفرس وهو ان رجلا قدم على عبدالله بن طاهر في نيسابور وقدم اليه كتابـا فارسيا فلما ساله عنه قال : هو قصة وامق وعذراء وضعها حكماء الفرس وقدمت الى كسرى انوشروان فاجابه الامير : نحن قوم نتلو القرآن ولا حاجة بنا لمثل هذا الكتاب يكفينا كتاب الله وسنة رسوله و كتـابك هذا من وضع المجوس لذلك فهو بغيض في اعيننا . ثم امر بالكتاب فالقي في الماء كما انه امر بـاتلاف جميع

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٨١

كتب المجوس في امارته ·

ولقد كان الفارسي يمدح باجادته العربية قال المتنبي يمدح ابن العميد :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية اعياده

وقال ابوسعيد الرستمي :

اذا نسبوني كنت من آل رستم ولكن شعري من لوءي بن غالب

وقال الزمخشري في خطبة كتابه المفصل : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وابى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بالسنة اللاعنين ، والمشق باسنة الطاعنين»

ولذلك ازدهرت العربية في بلاد فارس ونبغ فيها من العلماء والادباء والشعراء والكتاب من هم ائمة في تاريخ ادبنا كابن العميد واضرابه ·

الدولة البويهية

(٣٢٠ — ٤٤٧)

في الجنوب الغربي من شاطيء بحر الخزر تقع بلاد الديلم التي ظهر منها بنو بويه واهل تلك البلاد ليسوا من العنصر الفارسي بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة ولكن بني بويه اسرة فارسية تنتسب الى بهرام جور الملك الساساني وانما سموا بالديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم .

اسس بنو بويه دولة ملكت العراقين والاهواز وفارس وقام بتأسيسها الاخوة الثلاثة ابو الحسن علي (عماد الدولة) وهو الاكبر ، وابو علي الحسن (ركن الدولة) وهو الاوسط ، واحمد (معز الدولة) الاصغر ابناء ابي شجاع بويه بن فنا خسرو .

وكأن الاقدار شاءت ان تجعل صلة بين آل بويه وآل العميد منذ اول امرهم ، وذلك ان عليا والحسن اقبلا حوالي سنة ٣٢٠ مع بعض القواد على مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية في طبرستان فخلع مرداويج على علي والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحي وولى عليا بلاد الكرج

وكتب لهم بذلك العهود فساروا الى الري وبها وشمكير اخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد (والد ابن العميد) واتفق ان كان مع علي بن بويه بغلة شهباء من احسن مايكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها مائتي دينار فعرضت على العميد فاخذها ونقد ثمنها فلما حمل الى علي اخذ منه عشرة دنانير ورد الباقي ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين آل العميد وآل بويه.

ثم بدا لمرداويج فندم بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب الى اخيه وشمكير والى العميد يأمرهما بمنعهم عن المسير الى اعمالهم وكانت الكتب تصل الى العميد قبل وشمكير فانفذ الى علي بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله. ولما اصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج واراد ان يستدعي علي بن بويه فقال العميد انه لا يرجع طوعاً وربما قاتل من يقصده وخرج من طاعتنا فتركه.

عظم امر هؤلاء الاخوة الثلاثة العصاميين فملكوا اكثر بلاد الفرس ووجهوا اصغرهم احمد الى الاستيلاء على بغداد فدخلها سنة ٣٣٤ والخليفة يومئذ المستكفي بالله فقابله الخليفة واحتفى به

ولقبه معز الدولة كما لقب اخويه عليا بعماد الدولة، والحسن ركن الدولة — وهذا الذي استوزر ابن العميد — . واستقر الامر بين هوءلاء الاخوة على ان يكون عماد الدولة صاحب بلاد فارس والاهواز، وركن الدولة صاحب بلاد الري والجبل، ويكون معز الدولة بالعراق . ومنذ ذاك الحين سقط سلطان الخلفاء العباسيين وصاروا تحت سيطرة بني بويه ليس لهم الا الاسم .

وقد كان بنو بويه شيعة زيدية غالية فبدا لمعز الدولة بعد ان دخل بغداد ان ينقل الخلافة من بني العباس الى احد العلويين ولكن بعض خواصه اشار عليه الا يفعل وقال له انك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لفعلوا فاعرض عما كان قد عزم عليه .

ولبني بويه اياد بيضاء على العلم والادب فقد كانوا يجلون اهل الفضل ولا يعتمدون في اعمالهم الا عليهم ووزراوءهم من اعيان الادباء كابن العميد وابنه ابي الفتح من بعده والصاحب ابن عباد وابي محمد الحسن المهلبي وسابور بن اردشير الذي انشأ

في كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على افادة الناس لم يكن في الدنيا احسن منها كما قال ياقوت ·

واشتهر من بني بو يه انفسهم غير واحد بالادب والشعر كعضد الدولة ابن ركن الدولة تلميذ ابن العميد وهو الذي استقدم المتنبي واحتفى به واسنى له الجوائز وقرب اليه العلماء والادباء وقد الف له ابو اسحق الصابي كتابا في اخبار آل بو يه سماه التاجي والف له ابو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ·

وكان عز الدولة ابن معز الدولة شاعرا وكذلك تاج الدولة ابن عضد الدولة آدب آل بويه واشعرهم واكرمهم وكذلك ابو العباس خسرو بن فيروز بن ركن الدولة وتجد امثلة من اشعارهم في اول الجزء الثاني من يتيمة الدهر للثعالبي ·

وانقرض ملك بني بو يه على يد طغرلبك السلجوقي سنة ٤٤٧ ·

اسرة ابن العميد

آل العميد اسرة فارسية من مدينة (قم) رأسها ابو عبدالله الحسين بن محمد الملقب بالعميد. وهي من الاسر التي كان لها المحل الرفيع في العلم والادب والسياسة والوجاهة منذ اوائل القرن الرابع. فلقد تسلسلت الوزارة والكتابة فيهم اكثر من نصف قرن كانوا فيه مسموعي الكلمة نافذي الرأي بيدهم الحل والعقد في شؤون ثلاث دول من الدول الفارسية فهم من اركان نهضة الفرس واستقلالهم ورافعي لواء الادب العربي فيها.

كان ابو عبد الله العميد (والد ابن العميد) وزيراً في الدولة الزيارية بطبرستان ثم كتب لماكان بن كاكي احد الامراء المستقلين بجرجان ثم صار وزيرا في الدولة السامانية بخراسان وما زال بها حتى مات كما سترى ذلك مفصلا في ترجمته.

وبينا كان ابو عبدالله العميد وزيراً في الدولة السامانية اذا بابنه (ابن العميد) يزر لركن الدولة ابن بويه سنة ٣٢٨ ففاق اباه في السياسة والتدبير والعلم والادب والكتابة وسمو المكانة وظل في عمله حتى مات سنة ٣٦٠ وخلفه ابنه ابو الفتح

و كان اديبا فاضلا ولكن نزق الشباب وتيه الفتوة اورداه حتفه فغضب عليه عضد الدولة ابن ركن الدولة وامر بقتله سنة ٣٦٦ ولم تشفع له خدمات والده لبني بويه وهكذا فان « الملك عقيم » وبه انقرض بنو العميد الذين اعادوا سيرة بني برمك بادبهم وكرمهم قال بعض الشعراء يرثيهم :

آل العميد وآل برمك مالكم ... قل المعين لكم وذل الناصر
كان الزمان يحبكم فبدا له ... ان الزمان هو المحب الغادر

وستطلع على احوال كل منهم بالتفصيل فيما يأتي ٠

العميد

« والد ابن العميد »

ابو عبدالله الحسين بن محمد المعروف بكله والملقب بالعميد على عادة اهل خراسان في اجرائه مجرى التعظيم ٠ اصله من مدينة (قم) كان فاضلا اديبا مترسلا قال الثعالبي : « هو في الرتبة الكبرى من الكتابة ورسائله مدونة بخراسان وذكر ابو اسحق

الصابي في الكتاب التاجي ان رسائل ابي عبدالله لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه ابي الفضل – ابن العميد – وعندي ان هذا الحكم من ابي اسحق فيه حيف شديد على ابن العميد والقاص لا يحب القاص»

اما نشأته فلا نعلم عنها الا ما ذكره ياقوت في معجم الادباء بترجمة الصاحب ابن عباد نقلا عن ابي حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين ابن العميد والصاحب ابن عباد وذلك قوله : «ان قلت كان الامين – والد الصاحب – معلما بقرية من قرى طالقان الديلم قيل كان والد العميد نخالا في سوق الحنطة بقم»

وكان من امر العميد انه وزر لمرداويج بن زيار موسس الدولة الزيارية بطبرستان سنة ٣١٦ وفي وزارته هذه كانت الصلة بينه وبين آل بويه اذ اعانهم على تحقيق احلامهم في الملك كما مر معك في الكلام على الدولة البويهية .

وظل العميد مع مرداويج حتى قتل سنة ٣٢٣ وكان اذ ذاك قائد من عظماء الديلم اسمه ماكان بن كاكي مستقرا بكرمان من قبل صاحب خراسان نصر بن احمد الساماني فلما بلغه الخبر استعفى من ولاية كرمان وسأل صاحب خراسان ولاية جرجان

فوليها وهناك اتصل العميد بما كان و كتب له ثم آل الامر الى ان خلع ماكان طاعة صاحب خراسان واسقط خطبته فوقعت بينهما حرب انتهي امرها بقتل ماكان بن كاكي واخذ رأسه الى خراسان مع الاسارى ورؤوس القتلى وكان ذلك سنة ٣٢٩ وكان العميد في جملة الاسرى فشفع به فضله وادبه اذ ان ملوك الدولة السامانية معروفون باصطفائهم لاهل العلم والادب فاطلق عنه واكرم ورتب في الدار السلطانية . ثم تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولقب بالشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان فحسده ابو جعفر محمد بن العباس بن الحسين الوزير فقال فيه :

تظلم ديوان الرسائل من كله الى الملك القرم الهمام وحق له

وكان اذ ذاك ابو القاسم علي بن محمد النيسابوري الاسكافي يكتب في ديوانه و يرى نفسه احق منه برتبته وله فيه ابيات منها :

وقائل ماذا الذي من كلة تطلبه
قلت له اطلب ان يقلب منه لقبه
وقلب (كله) الذي هو لقبه هلك .

وله فيه :

هذا الذي يدعى كله ماشأنه الا البله
في رأسه عمـامة مكفوفـة مزمله
كأنها في لونهـا قدر على سفرجله

ولبعض المجان ابيات يتنادر فيها على العميـد بان الاسم في الديوان له والعمل لابي القاسم :

تبظرم الشـيخ كله ولست ارضى ذاك له
كأنه لم ير من اقعد عنه بدله
والله ان دام على هـذا الجنون والبله
فـانه اول من ينتف منـه السبله

وكان العميد مصابا بالنقرس في قدمه فكان يحضر الديوان في محفة فقال فيه ابو القاسم :

ياذا الذي ركب المحفـ ـة جامعا فيها جهازه
اترى الا له يعيشني حتى يريني‌ها جنـازه

ولكن هذه الحملة الشديدة لم تزد العميد الا تمكينـا عند صاحب خراسان فانه استوزره وابقى الديوان برسمه وفي ذلك يقول ابو القاسم ايضا :

اقول وقد سرنا وراء محفة   وفيها ابو عبد الاله كسيرا
شقاؤك من شكواك ثم شقاؤنا   من أيام سوء قدمتك وزيرا
ترقيك من هذي المحفة حية   الى النعش محمولا تصرصر يرا

و بقي العميد في الوزارة الى ان مات في ايام الملك نوح بن نصر الساماني ولم اظفر بشيء من رسائله ٠

اولية ابن العميد

ليس هناك نص على تاريخ ميلاد ابي الفضل محمد ابن العميد ولكن يغلب على الظن انه ولد اما في آخر سنة من القرن الثالث او اول سنة من القرن الرابع لانه توفي سنة ٣٦٠ وكان عمره اذ ذاك يزيد على ستين سنة يسيرا ٠ كما انه ليس هناك نص على اسماء شيوخه الذين اخذ عنهم العلم والفلسفة والادب وماهي الكتب التي قرأها عليهم حتى بلغ ذلك المبلغ في الفضل ٠ وكل ما اتيح لي ان اطلع عليه في هذا الباب هو ماذكره ابن النديم في كتاب الفهرست من ان محمد بن علي بن سعيد المعروف بسمكة مؤلف كتاب اخبار العباسيين كان معلم ابن العميد ٠

ويعرف هذا الرجل ايضاً بابن سمكة القمي كما ذكر ذلك الثعالبي في يتيمة الدهر عند كلامه على اصفياء ابن العميد قال : وكان كل من ابي العلاء السروي وابي الحسن العلوي العباسي وابن خلاد القاضي وابن سمكة القمي وابي الحسين ابن فارس وابي محمد هندو يختص به ويداخله وينادمه حاضراً ويكاتبه ويجاوبه ويهاديه نثراً ونظما .

وورد ذكره في كتاب المقابسات لابي حيان التوحيدي مرتين سماه في الاولى ابن سمكة القمي وفي الثانية سمكة القمي وروى عن طريقه قصة وشعراً .

ولقد وردت جملة في احدى رسائل ابن العميد تشعر بانه درس كتاب السياسة لافلاطون وكتاب الاخلاق لاسطاطاليس قال : « وهبك افلاطون نفسه فاين ما سننته من السياسة فقد قرأناه ... فاحسبك ارسطاطاليس بعينه اين ما رسمته من الاخلاق فقد رأيناه ... »

ولئن فاتتنا معرفة اشياخ ابن العميد في نشأته فانا نعلم انه نشأ في وسط علمي فوالده كاتب اديب كما علمت من قبل والعصر الذي نشأ فيه عصر نضجت فيه العلوم والآداب فضلا عن

ان ابن العميد اعطي من مواهب الحفظ والذكاء ما اتاح له التفوق على اقرانه قال ابو علي احمد بن محمد المعروف بمسكويه في كتاب تجارب الامم : (حدثني « ابن العميد » غير مرة انه كان في حداثته يخاطر رفقاءه والادباء الذين يعاشرهم على حفظ الف بيت في يوم واحد وكان رحمه الله اثقل وزنا واكثر قدرا من ان يتزيد . فقلت له كيف يتأتى لك ذلك؟ فقال كانت لي شريطة وهي ان يقترح علي من شعر لم اسمع به الف بيت في يوم واحد يكتب واحفظ منه عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين اعيدها وابرأ من عهدتها . فقلت وما معني البراءة من عهدتها؟ قال لا كاف اعادتها بعد ذلك قال فكنت انشدها مرة او مرتين واسلمها ثم اشتغل بغيرها حتى افرغ من الجميع في اليوم الواحد)

اما العلوم التي درسها وبرع فيها فكثيرة منها الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والالهيات والطبيعة والتصوير . اما الادب فقد كان علما فيه واسع الرواية لاشعار العرب واخبارهم كما كان اماما في الكتابة وله شعر حسن ولكنه كان يرمى بالتقصير في علوم الدين . وسأفرد لعلمه وادبه وكتابته وشعره فصولا خاصة من هذه الرسالة .

اتصاله ببني بويه

لابي عبد الله الحسين بن محمد العميد – والد ابن العميد – فضل على بني بويه اذ انه كان من اعظم الاسباب في فسح المجال لطموحهم وتأسيس دولتهم لما سهل السبيل لعماد الدولة للذهاب الى الكرج والياً عليها من قبل مرداويج بن زيار بعد ان امر مرداويج بمنعه من الذهاب كما ذكر ذلك في فصل الدولة البويهية .

ولئن فات بني بويه ان يكافئوا العميد على حسن صنيعه فانهم لم ينسوا له هذه اليد عندهم فكافأوا عليها ولده ابا الفضل ابن العميد اذ ولاه ركن الدولة صاحب بلاد الري والجبل وزارته واطلق يده في امور المملكة .

لا نعلم ما هي الاعمال التي وليها قبل الوزارة ولكن الثعالبي يشير اليها بقوله : « ولم يزل ابو الفضل في حياة ابيه وبعد وفاته يتدرج الى المعالي ويزداد على الايام فضلا وبراعة حتى بلغ ما بلغ واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل وخدمه الكبراء وانتجعه الشعراء »

تولى ابن العميد وزارة ركن الدولة عقيب موت وزيره ابي

على القمي (١) سنة ثاني وعشرين وثلاثمائة ، وكان عمره دون الثلاثين وكان ابوه العميد لا يزال حياً ولذلك خبر طريف رواه صاحب التكملة عن ابن الصابي قـال : « قيل ان مما نفق به ابن العميد على ركن الدولة ان ركن الدولة اراد ان يحدث بناء بالري واختار له موضعاً وكانت فيه شجرة ذات استدارة عظيمة وعروق نازلة متشعبة فقدر لقلعها واخراج عروقها جملة كثيرة ولم يقع في نفسه انها تستأصل استئصالا قاطعاً . فقال ابن العميد انا اكفي الامير هذه الكلفة واقطع هذه الشجرة بعروقها بأهون شيء وفي اقرب امد واقل عدد فاستبعد ذلك ركن الدولة وقال من طريق الازدراء افعل فاستدعى حبالا واوتادا وسلك هذا المسلك المعروف في جر الثقيل فلما رتب ما رتبه ونصب ما نصبه اقام نفراً قليلا حتى مدوا ومنع ان يقف احد على جربان كثيرة من الشجرة بحسب ماقدره من وشوج اصولها ووشوج عروقها ووقف ركن الدولة في موكبه ينظر فما راعهم الا تزعزع الارض وانفتاحها وانقلاب قطعة كبيرة منها وسقوط الشجرة منسلة بجميع عروقها فعجب ركن الدولة من ذلك واستظرفه واستعظمه ونظر الى ابي الفضل بعين الجلالة »

---

(١) كذا في ابن خلكان وفي ابن الاثير ابو عبد الله القمي .

وفاته

لم يعمر ابن العميد طويلا فانه لما مات كان عمره ستين سنة او تزيد قليلا قضى اكثرها في وزارة ركن الدولة ابن بويه لانه تولاها سنة ٣٢٨ ومات وهو وزير سنة ٣٦٠ .

لم يكن ابن العميد موفقا في صحته فقد كان مصابا بالنقرس كما كان ابوه العميد مصابا به ، وكان مصابا بالقولنج ايضا قال ابن خلكان : كان ابن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس اخرى تسلمه هذه الى هذه وقال لسائل سأله ايهما اصعب عليك واشق قال اذا عارضني النقرس فكأني بين فكي سبع يمضغني واذا اعتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه و يقال انه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد امعن منه فقال وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما اشتهي .

وكان من خبر وفاته ان حسنويه بن الحسن الكردي ثار على ركن الدولة في نواحي الدينور فتقدم ركن الدولة الى ابن العميد باستئصال شأفته فخرج اليه ومعه ابنه ابو الفتح فلما وصل الى همذان اشتدت علته وتوفي بها ليلة الخميس السادس من صفر سنة ستين وثلاثمائة .

كتبه

الف ابن العميد كتبا ضاعت كلها او انها لاتزال مكنونة لاننا لانعلم مكان وجودها والذي بقي من آثاره قطع في النثر والشعر مبثوثة في كتب التراجم والادب على سبيل الاستشهاد. اما اسماء كتبه فهي

١ — كتاب ديوان رسائله : ذكره صاحب كتاب الفهرست . ولا بد من ان يكون اجل آثاره لان الرجل مشهور برسائله وله طريقة خاصة في الانشاء سيأتي الكلام عليها . ولقد نوه ابو علي مسكويه برسائله السياسية ورفعة شأنها قال : « فاما (١) اضطلاعه بتدبير الممالك وعمارة البلاد واستغزار الاموال فقد دلت عليه رسائله ولا سيما رسالته الى ابي محمد ابن هندو التي يخبر فيها باضطراب امر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها وما يجب ان يتلافى بهِ حتى تعود الى احسن احوالها فان هذه رسالة يتعلم منها صناعة الوزراء و كيف تتلافى الممالك بعد تناهي فسادها »

---

(١) تجارب الامم ج٦ ص ٢٧٩

٢ — كتاب المذهب في البلاغات ذكره صاحب الفهرست ولم يبين من امره شيئا .

٣ — كتاب الخلق والخلق ذكره صاحب معاهد التنصيص وقال : لم يبيضه ولم يكن الكتاب بذاك ولكن جعس الرؤساء خبيص وصنان الاغنياء ند .

٤ — ديوان في اللغة : ورد ذكر هذا الكتاب في خزانة الادب للبغدادي عرضا في ترجمة المتنبي وخبر زيارته لابن العميد قال : « وكان ابو الفضل — ابن العميد — يقرأ عليه يعني «المتنبي» ديوان اللغة الذي جمعه و يتعجب من حفظه وغزارة علمه

ابن العميد وزيرا

قضى ابن العميد الشطر الاعظم من عمره في الوزارة فقد تقلدها سنة ٣٢٨ وهو دون الثلاثين ومات عنها سنة ٣٦٠ وقد

اربى على الستين (١) واخباره قبل الوزارة فيها كثير من الغموض وما نقل من سيرته وجلائل اعماله انما كان بعد ان استوزره ركن الدولة ·

عهد الى ابن العميد بالوزارة ودولة بني بويه في دور نشوئها تحتاج الى حزم وعزيمة في الفتوح وقوة و بطش في قمع الفتن والثوائر ورفق و كياسة في الترغيب وشدة وعنف في الترهيب مع نفوذ بصر في تصريف الامور وحدة ذكاء في اهتبال الفرص الى أضطلاع ودهاء في السياسة وطول باع في تدبير هذه الشؤون كلها وتصريفها فقام ابن العميد بما عهد اليه أحسن قيام بل كانت سيرته في الوزارة مثالا يحتذيه الوزراء من بعده ·

ويؤخذ مما ذكره صاحب تجارب الامم ان امور ركن الدولة كانت مضطربة فلما استوزر ابن العميد قرت الحال واطردت الامور بحسن تدبيره و بعد نظره وشجاعته واقدامه ·

---

(١) لاعبرة بما قاله ابن الأثير وابن خلدون من ان وزارته كانت اربعا وعشرين سنة لان ابن الاثير نفسه ذكر في حوادث سنة ٣٢٨ ان ركن الدولة استوزر ابن العميد فيها وقد علمت ان وفاته كانت سنة ٣٦٠ فتكون مدة وزارته اثنتين وثلاثين سنة ولم يذكر انه فصل عن الوزارة منذ تولاها حتى مات

لم يكن ابن العميد من الوزراء الذين يأمرون وينهون وهم متربعون في دست وزارتهم بل كان مع علو مكانته في السياسة والتدبير يباشر الحروب ويقود الجنود بنفسه بشجاعة و بأس قال مسكويه : « فاذا حضر المعارك و باشر الحروب فانما هو اسد في الشجاعة لايصطلى بناره ولا يدخل في غباره ولا يناويه قرن ولا يبارزه بطل مع ثبات جاش وحضور رأي وعلم بمواضع الفرص وبصر بسياسة العسكر والجيوش ومعرفة بمكايد الحروب »

ووقائعه كثيرة تدل على رباطة جاش واقدام كوقعة ابن ما كان وخبر ذلك : انه هجم ابن ما كان سنة ٣٤٤ على اصبهان واستولى عليها فاضطر ابو منصور بويه ابن ركن الدولة وعيال ركن الدولة وجميع اصحابه ان يخرجوا على وجوههم الى خان النجان . وكان ابن العميد بأرجان فبادر مع قطعة من العرب ونفر يسير من الديلم فوجد ابن ما كان قد تبع ابا منصور وقد اشرف هو والحرم على الفضيحة والاسر قال صاحب تجارب الامم كان ابن العميد رحمه الله يحدثني بخبر هذه الواقعة مرات فيقول : لما التقينا بالخان انهزم عني اصحابي واشتغل اصحاب ابن ما كان بالنهب والغارة وثبت انفة فقط من

غير رجاء مني في ظفر بل وقفت وقوف المستسلم للقتل والاسر وذلك اني فكرت في تلك الحالة وقلت ان انصرفت بنفسي سالما ومثلت بين يدي صاحبي اي وجه يكون لي عنده واي لسان يدور بعذر لي بحضرته بعد ان اسلمت اعزته واولاده وحرمه وبالجملة ملكه ونظرت فاذا القتل علي في حالتي تلك اهون من هذه الحال التي تصورتها فصرت لان اقتل كريما قال فكنت واقفا وراء خيمة لي بعمودين وانا ارى اطنابها تقطع ومافيها يخرج ومن يراني لا يظن اني اثبت في ذلك الموضع مع تلك الصورة · فبينما انا كذلك واصحاب ابن ما كان مشغولون عني بالنهب اذ ثاب الي غلامي روين وفلان وفلان وراءهم العرب فثاب منهم جماعة يسيرة فحملت بهم وصاح الناس الكرة فقتلنا واسرنا ولم يفلت احد ولما كان بعد ساعة من النهار لم يبق من جيش ابن ما كان عين تطرف الامن اخذ اسيرا وحمل الي ابن ما كان وبه ضربة في يده وقد تعلق منها اصبعان بجلدة رقيقة فمدها حتى قطعها قال فهو على ذلك بين يدي حتى شق الزحمة اليه مكار او ركابي فصفعه صفعة طن بها الموضع وغاص فلحقني غيظ عظيم وامرت بطلبه وهممت بالمثلة به وقطع يده فما وقفت له على اثر ولا عرفت له خبر الى اليوم ·

وكثورة الجنود الخراسانية في الري (١) وغيرهما وقدذكر صاحب تجارب الامم كثيرا من وقائعه وبلائه الحسن فيها ولا محل لاستقصائها هنا. ويكفي انه توفي بهمذان وهو يقود حملة يحارب بها حسنويه الكردي احد من خرجوا على ركن الدولة.

وقد تخرج على ابن العميد في السياسة والادب عضد الدولة ابن ركن الدولة اعظم ملوك بني بويه واوسعهم سلطانا وكان لايدعوه الا بالاستاذ الرئيس كما تخرج عليه ابنه ابو الفتح والصاحب ابن عباد.

ابن العميد عالماً

لم تشغل ابن العميد شقشقة الفصاحة وخلابة الالفاظ عن النظر بالعلوم والتعمق فيها ولا سيما العقلية منها ولعل اعجابه بالجاحظ وتعصبه له وقوله فيه « كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا» من جهة علم الجاحظ وتفكيره لامن جهة اسلوبه في الانشاء لان ابن العميد خالف الجاحظ في اسلوبه وشرع

(١) تجارب الامم ج٦ ص ١٥٩ و٢٢٤

لنفسه طريقة عرف بها سيأتي الكلام عليها في موضعه .

العلوم التي برع بها ابن العميد والتي نص مترجموه على تبحره فيها هي علوم العربية والادب والهندسة والنجوم والمنطق وعلوم الفلسفة والالهيات والطبيعة والتصوير ولقد مر بك ان من جملة الاسباب التي نفق بها على ركن الدولة معرفته بعلم الحيل .

وقد كانت له عناية تامة بكتب اليونان وترجمتها قال صاحب كتاب الفهرست : « الذي رأيت انا بالمشاهدة ان ابا الفضل ابن العميد انفذ الى ههنا (بغداد) في سنة نيف وار بعين (بعد الثلاثمائة) كتبا منقطعة اصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت باليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره وكانت اسماء الجيش ومبلغ ارزاقهم وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحة حتى كأن الدباغة فارقتها عن قرب فلما بقيت ببغداد حولا جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها »

وذكر ايضا ان ابا يوسف الرازي فسر المقالة العاشرة من كتاب اقليدس في اصول الهندسة وجودها لابن العميد .

وكانت خزانة كتبه فيها كل علم وكل نوع من انواع

الحكم والآداب تحمل على مائة وقر وزيادة (١)

قال صاحب تجارب الامم وهو ممن عاصر ابن العميد ولازمه وكان قيم دار كتبه : « كان هذا الرجل — ابن العميد — قد ادي من الفضائل والمحاسن مابهر به اهل زمانه حتى اذعن له العدو وسلم الحسود ولم يزاحمه احد في المعاني التي اجتمعت له وصار كالشمس التي لاتخفى على احد وكالبحر الذي يتحدث عنه بلا حرج ولم ار احدا قط زادت مشاهدته على الخبر عنه غيره . فمن ذلك انه كان اكتب اهل عصره واجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً في النحو والعروض واهتداء الى الاشتقاق والاستعارات وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام . ولقد حدثني ابو الحسن علي بن القاسم رحمه الله قال كنت اروي ابي ابا القاسم القصائد الغريبة من دواوين القدماء لان الاستاذ الرئيس كان يستنشده اذا رآه وكان لايخلو اذا انشده من رد عليه في تصحيف او لحن مما يذهب علينا فكان ذلك يشق علي واحب ان تصح له قصيدة لايعرفها الاستاذ الرئيس او لايرد عليه فيها شيئا فاعياني ذلك حتى وقع الي ديوان الكميت وهو

---

(١) تجارب الامم ج ٦ ص ٢٢٤

مكثر جداً فاخترت له ثلاث قصائد غريبة ظننت انها ما وقعت الى الأستاذ الرئيس وحفظته اياها وتوخيت الحضور معه فلما وقع بصره عليه قال : هات ابا القاسم انشدني شيئا مما حفظته بعدي فابتدأ ينشده فلما استمر في قصيدة من هذه القصائد قال له قف فقد تركت من هذه القصيدة عدة ابيات ثم انشده اياها فخجلت خجلة لم اخجل مثلها ثم استزاد فانشده القصيدة الاخرى فاسقط فيها كما اسقط في الاولى واستدركه عليه ايضا قال فعلمت ان الرجل بحر لاينزف ولا يؤتى ماعنده فهذا ماحدثني به هذا الرجل وكان اديبا كاتبا .

واما ماشاهدته منذ مدة صحبتي اياه وكانت سبع سنين لازمته فيها ليلا ونهارا انه ماانشد شعراً قط لم يحفظ ديوان صاحبه ولاغرب عليه بشعر قديم ولا محدث ممن يستحق ان يحفظ شعره ولقد سمعته ينشد دواوين قوم مجهولين اتعجب من تعاطيه حفظ مثلها .

ثم قال : فأما تأويل القرآن وحفظ مشكله وتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الامصار فكان منه في ارفع درجة واعلى رتبة ثم اذا ترك هذه العلوم واخذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيها

احد فاما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منها خاصة فما جسر احد في زمانه ان يدعيها بحضرته الا ان يكون مستفيداً او قاصدا قصد التعلم دون المذاكرة وقد رأيت بحضرته ابا الحسن العامري رحمه الله وكان ورد من خراسان وقصد بغداد وعاد وعنده انه فيلسوف تام وقد شرح كتب ارسطاطاليس وشاخ فيها فلما اطلع على علوم الاستاذ وعرف اتساعه فيها وتوقد خاطره وحسن حفظه للمسطور برك بين يديه واستأنف القراءة عليه وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح ان يتعلم منه فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ودرسه اياها .

ثم قال : فهذه كانت مرتبته في العلوم والآداب المعروفة ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها احد كعلوم الحيل التي يحتاج اليها في اواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مراكز الاثقال واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة الى الفعل وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون وحيل في الحروب مثل ذلك واتخاذ اسلحة عجيبة وسهام تنفذ امدا بعيدا وتؤثر آثاراً عظيمة ومرائي تحرق على مسافة بعيدة جداً والطف كيف لم يسمع بمثله ومعرفة

بدقائق علم التصاوير وتعاط له بديع ولقد رأيته يتنـاول من
مجالسه الذي يخلو فيه بثقاته واهل انسه التفاحة وما يجري مجراها
فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره
لو تعمد لها غيره بالالات المعـدة وفي الايام الكثيرة مااستوفى
دقائقها ولا تأتي له مثلها الى ان قال : ولعل من يطلع على هـذا
الفصل من كتابنا ممن لم يشاهده يظن انا اعرناه شهادة او ادعينا
له اكثر من قدر علمه ومبلغ فضله لاوالذي انطقنا بالحق واخذ
علينا الا نقول الا به »

لااقول ان فيما قاله صاحب تجارب الامم محاباة او مداجاة
ولكنني ارى ان الرجل مع صدقه افرط في حبه لابن العميد بعد
ان صحبه مدة طويلة فعظمت فضائل ابن العميد في عينه حتى
صار لايرى غيرها او لايرى اعظم منها . على اننا اذا اخذنا بهذه
الشهادة فاننا ناخذ على مؤديها انه اغفل ذكر العلوم التي قصر
فيها ابن العميد قال صاحب معاهد التنصيص : « ويقال انه كان
مع فنونه لايدري الشرع فاذا تكلم احد بحضرته في امر الدين
شق عليه وخنس ثم قطع على المتكلم فيه »

وماهذا بضائر ابن العميد لان الكمال لله وحده . والذي يؤخذ

مما تقدم ان الرجل كان راسخ القدم في العلوم العقلية والادبية غير متمكن من العلوم الشرعية . والمطلع على ما بقي من آثاره يلمس اثر العلم فيها كالشواهد الادبية والاشارات التاريخية ومصطلحات العلوم العقلية واسماء الفلاسفة من ذلك قوله من رسالة :

« وهبك افلاطون نفسه فاين ماسننته من السياسة فقد قرأناه فلم نجد فيه ارشادا الى قطيعة صديق ، فاحسبك ارسطاطاليس بعينه اين مارسمته من الاخلاق فقد رأيناه فلم نر فيه هداية الى شيء من العقوق ، واما الهندسة فانها باحثة عن المقادير ، وان يعرفها من يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه وله ، بل لك في رؤساء العربية منازيح ومضطرب ولسنا نشاحك . لكن اتحب ان تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل وقد اغتربت في الذهاب بنفسك الى حيث لاتهتدي للرجوع عنه ، واما النحو فلن تدفع عن حذق فيه و بصر به وقد اختصرته اوجز اختصار وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، و يرضي بك اسوة ، قلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ولكن غرضا

يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضي ذي اللهجة فاعرف قدر حذقك فيه ، الا اني لااراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت في بحر المجتث منه الى شط المتقارب »

هذا ولابن العميد يد بيضاء على العلم والادب لفرط عنايته باهلهما واصطفائه لهم وجعل داره مثابة للعلماء والادباء والشعراء .

ابن العميد كاتباً

الكتابة فن ابن العميد الذي غلب عليه وعرف به وان كان جود وشارك في كثير من العلوم كما نص عليه من قبل . فهو امام في الكتابة وصاحب طريقة كتب لها البقاء اكثر من الطرق التي سبقتها كطريقة ابن المقفع والجاحظ لالانه اعظم منهما بل لاسباب سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

ابن العميد احد الاعلام الذين حفظت الاجيال اسمهم ولم تحفظ من آثارهم الا النزر اليسير لان البقية الباقية بين ايدينا من آثاره لاتكفي لتخليد اسمه بل لاتتلاءم مع شهرته الواسعة في

عالم الادب اذ انه ليس من المعقول ان تقوم شهرتـه على ذلك القدر اليسير من نثره ونظمه المتبعثر في كتب الادب والذي لو جمع لما زاد على كراستين فلا بد من ان يكون كتب كثيرا حتى ذاع اسمه وطارت شهرته فلما عبثت الايام بآثاره بقي اسمه خالدا بقوة الاستمرار . وليس ابن العميد وحيدا في هذا الشأن فاشباهه في تاريخ ادبنا كثير كعبد الحميد الكاتب و بشار بن برد وعمرو ابن مسعدة وغيرهم . لذلك فدراسـة مثل هؤلاء الادباء لايمكن ان تكون تامة والحكم عليهم لايمكن ان يكون مسلما بصوابه مادامت اكثر آثارهم لا تزال مفقودة .

يحار الباحث في ابن العميـد حينما يرى كتب التراجم والادب تغدق عليه الالقاب وتكيل له جمل التقريظ بغير حساب من مثل « الاستاذ الرئيس ، الجاحظ الثاني ، بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ثم يرجع الى آثاره الباقية فلا يجدها تستحق كل هذه الجلبة والضوضاء . فاذا هم بالحكم ازداد حيرة وارتباكا أيسلم بما قال القائلون والشواهد غير قاطعة ؟ ام يتجرد عن كل مؤثر ويجعل تلك الصبابة من اثار ابن العميد دليله في الحكم على صاحبها ؟ وفي كلا الامرين حال لا يطمئن اليها الضمير

ولا يسكن لها الوجدان ·

ولكنني لم اجد مزحلا عن الاخذ بالامر الثاني في اكثر البحث ، وما يضر ابن العميد قولي فيه على تلك الشريطة ان خالف قول مترجميه بعد ان اصطلح الناس على تأليهه في الادب منذ الف سنة ·

لو قدر لرسائل ابن العميد ان تبقى لبلغت مئات من الصفحات كما يؤخذ من كلام من ترجم له ولكن اجتياح المغول لبلاد فارس والعراق ذهب بالقسم العظيم من ميراثنا العلمي والادبي وذهبت معه آثار ابن العميد · والبقية الباقية منها مبثوثة في كتب الادب على سبيل الاقتباس والاختيار والتمثل وهي لاتخرج في مواضيعها عن ثلاثة اقسام : الرسائل الديوانية « المكاتبات الرسمية » ، والاخوانيات « الرسائل الخاصة » ويقال انها احسن رسائله ، وفقر في الحكم تجري مجرى الامثال · ولعل الذي ضاع من اثاره لايختلف كثيرا عما بقي من حيث الموضوع عدا الكتب التي الفها وعدا شعره ·

اسلوبه وخصائصه

اظهر مافي طريقة ابن العميد الصنعه الدقيقة والزخرف في المفردات والجمل والعناية باختيار الكلام السهل المصقول والقصد الى الاسجاع الرنانه والادلال بسعة الرواية من حيث الاقتباس والتمثل والاستشهاد بكلام العرب مابين شعر ونثر ومثل وحكمة مع الاشارة الى اخبارهم ونوادرهم ووقائعهم مما يدل على ان اعظم عنصر في ثقافته الادب العربي الخالص .

ولكنه مع طول باعه في كلام العرب وادبهم تجد في اسلوبه اشياء ينكرها الطبع العربي وذلك في بناء الجمل وصلتها بعضها ببعض ، فقد تمر برسالة من رسائله سهلة الموضوع واضحة الالفاظ تفهم كل جملة من جملها مستقلة فاذا انتهيت من الرسالة غم عليك مراد الكاتب فتقف حائرا تتهم فهمك تارة والكاتب اخرى . وعلة الغموض في الحقيقة هو صلة الجمل بعضها ببعض ولعل السبب في ذلك تبحر ابن العميد في الفلسفة والعلوم الدخيلة مع تتبعه للصنعة وتلك امور تعطل عمل الطبع في الافصاح عن المراد . من ذلك جواب كتبه ابن العميد لابي شجاع عضد الدولة عن

كتاب اقتضاه فيه صدر كتاب الفه فيه ابو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة : « انا اقدم الاجابة بحمد الله تعالى جده على ماوهب لنا معاشر عبيده وخدمه خاصة، بل لرعاياه عامة، بل لاهل الارض كافة، من عظيم النعمة بمكانه، وجسيم الموهبة بانفاق اعمارنا في زمانه، حتى شار كناه في اسباب السعادة التي لم تزل مذخورة عليه ، حتى صارت اليه ، وساهمناه في مواد الفضيلة التي لم تزل محفوظة له، حتى اتصلت به، فان المرء لاشبه شيء بزمانه، وصفات كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه . بان فضل شجاع الفضل في الزمان واهله، وتحلى الدهر بافضل حليته، وتحلت العيون والقلوب باحسن زينته، وكسا بنيه والناشئين فيه بشرف جوهره، واورثهم نيل فضله، وعز العلم واهله ، وعرف لمقتبسه فضله، وتوجهت الاذهان نحوه، وتعلقت الخواطر به وصرفت الفكر فيه ، ونشدت ضواله، ونظم اسناده، وجمعت افراده، ووثقت نفوس الساعين في استفادته، بحسن عائدته، فحرصت عليه، وصرفت نظرها اليه، وايقنت في بضاعتها بالنفاق، وفي تجارتها بالارفاق، فصار ذلك الى نماء العلوم وزيادتها داعية بتكثير قليلها ، وايضاح مجهولها ، وسببا وعلة الى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف، وسبيلا الى تقييد شواردها

في فعل التأليف. ان زل السلطان اتبعت الرذيلة اتباعا وذهبت الفضائل ضياعاً، وبطلت الاقدار والقيم، وسلبت الاخطار والهمم، وزال العلم والتعلم، ودرس الفهم والتفهم، وضرب الجهل بجرانه ووطيء بمنسمه واستعلى الخمول على النباهة، واستولى الباطل على الحق، وصار الادب وبالا على صاحبه، والعلم نكالا على حامله، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى مع من هذه صورته، تعظم النعمة بملك سلطان عالم كالامير الجليل عضد الدولة اطال الله تعالى بقاءه وادام قدرته، الذي احله الله عز وجل من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها، فهي نواد ممن لاقت حتى تصير اليه، وشوارد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه، تتلفت تلفت الوامق، وتتشوف اليه تشوف الصب العاشق قد ملكتها انى توجهت وحشة المضاع، وحيرة المرتاع،

فان تغش قوماً غيرهم او تزورهم فكالوحش يدنيها من الانس المحل

حتى اذا قابلته اسرعت اليه اسراع السيل ينصب في الحدور، والطير ينقض الى الوكور»

وهذا الكتاب كما ترى واضح الالفاظ والجمل ولكنه لا يخلو من غموض في اجمال المعنى. لذلك فكلام ابن العميد في الفقر القصيرة

والحكم المستقلة عن بعضها اوضح منه في كثير من رسائله ٠

***

وهناك شيء آخر في كلامه تشعر به و يستعصي عليك تعليله لاول وهلة ! كلام مختار والفاظ رقيقة ومعان تنم على علم واسع وادب غزير ولكن كل ذلك لا يهز نفسك ولا يستثيرها كما يفعل بها كلام ابن المقفع والجاحظ مع ان ابن العميد اعظم علما واوسع رواية للادب من ابن المقفع ٠ وسبب ذلك فيما اعتقد ان الادب في نظر ابن العميد ضرب من ضروب التسليه والتلهي والترفيه واظهار البراعة والغلو والاغراق والبعد عن الحقيقة في التصوير والامعان في التزويق ٠وا كثر مابقي من آ ثاره في النثر والشعر ليس له خطر من حيث الموضوع فهو اما رساله عتاب او تهنئة او مداعبة او قصيدة يشكر بها هدية او ابيات في المعمى والالغاز وما الى ذلك من المواضيع التي ليست بذات بال بل هى الى اللهو اقرب منها الى الجد ٠

على انه اذا حزبه أمر اضطره لاطراح اللهو والاخذ بالجد اسمعك صوتا تتبين الحياة في كل نبرة من نبراته كالرسالة التي كتبها عن ركن الدولة الى ابن بلكا لما استعصى عليه جاء في

اواخرها : « تأمل حالك وقد بلغت هـذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحس؟ واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ماحنى عليه اضلاعك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلا بصدرك ان تظفر بفوت سريح ، او موت مريح . ثم قس غائب امرك بشاهده ، وآخر شأنك باوله » (١)

قال الثعالبي بلغني عن ابن بلكا وكان آدب امثاله انه كان يقول والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل الا كما اشار اليه الاستاذ الرئيس ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك اديمي واستصلاحي وردي الى طاعة صاحبه .

ولكن هذا النوع قليل فيما بقي من آثاره مع الاسف بل ربما كانت تلك الرسالة هي الوحيدة .

. . .

قلت ان ابن العميد يكثر من الاستشهاد بكلام العرب وهو فوق ذلك يستعين بمعانيهم فيحل منظومها تارة و يقتبسها اخرى كقوله من رسالة في شهر رمضان : (كتابي جعلني الله فداك

---

(١) انظر هذه الرسالة وغيرها في الفصل الذي عنوانه « نصوص من كلام ابن العميد »

وانا في كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من الم الجوع ووقع الصوم ومرتهن بتضاعف :

حرور لو ان اللحم يصلى ببعضها   غريضا اتى اصحابه وهو منضج

وممتحن بهواجر يكاد اوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحنف، ويزو به عن التنصر، يقبض يده عن امساك ساق وارسال ساق .

ويترك الجاب في شغل عن الحقب   ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها الخ ..)

كما ان اثر العلوم العقلية ومصطلحاتها وتسمية الفلاسفة وكتبهم بين في كلامه وقد مر بك مثال من ذلك في الصفحة (٤١)

. . .

طريقة ابن العميد في الانشاء تختلف اختلافا بينا عن طريقة ابن المقفع والجاحظ فقد كان الاولان يسيران مع الطبع على اختلاف في قوة طبعهما وسعة علمهما ونظرهما الى الادب . اما ابن العميد فقد حول اتجاه الانشاء العربي بما اخذ نفسه به من التأنق والتزويق وتتبع الرقة في انتقاء اللفظ حتى كادت

الفاظ الكتاب من بعده توسم بوسم خاص . فمنذ ذلك الحين انتصرت الصنعة على الطبع وتهافت الكتاب على مظاهر البيان الخلابة ونتج عن ذلك فيما بعد حصر الكتابة بقيود من الالفاظ ادت بها الى اغفال المعاني وتضييق مـداها فاصبحت مواضيع الكتاب متشابهة وضعفت قوة الابداع .

قد يكون ابن العميد اجاد فيما كتب ضمن الحدود التي شرعها لنفسه لانه من اقل معاصريه تكلفا واقواهم طبعا واغزرهم مادة ولكنه سن سنة كانت غير محمودة العاقبة لان الكتاب الذين اتوا بعده امعنوا في التزام تلك الحدود وتشددوا بها وزادوا عليها حتى صارت رسالة الكاتب اشبه بمتن يجمع انواع المعاني والبيان والبديع .

يميل ابن العميد الى الاسهاب اخذا بطريقة الجاحظ ولكن الجاحظ في اسهابه يمتح من قليب ذهنه و يستمد صوب عقله ويلم باطراف المعنى من كل ناحية . واسهاب ابن العميد نوع من الذهاب بالنفس والادلال بسعة المعرفة من طريق الترادف والاقتباس والاشارة والتعريض كقوله من رسالة في شهر رمضان : (احمد الله على كل حال واسأله ان يعرفني فضل بركته ، ويلقيني الخير

في باقي ايامه وخاتمته ، وارغب اليه في ان يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد علي غرة شوال فهي اسر الغرر عندي ، واقرها لعيني ، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ، ويعرض علي هلاله اخفى من السر ، واظلم من الكفر ، وانحف من مجنون بني عامر ، واضنى من قيس بن ذريح ، وابلى من اسير الهجر ، و يسلط عليه الحور بعد الكور ٠٠٠)

على ان رسالته الى ابن بلكا اشبه باسلوب الجاحظ في قوة الطبع وصدق اللهجة

٠ ٠ ٠

طريقة ابن العميد مع انها دون طريقة من تقدمه من الكتاب تغلبت على غيرها و كتب لها البقاء اكثر من كل الطرق وذلك لان عصر ابن العميد كان عصر تأنق في كل مظهر من مظاهر الحياة وطريقته على ما علمت من التأنق والتزويق ٠ ولعل لمنصبه وجلالة قدره عملا في اقبال الناس على تقليده واتباع مذهبه ولا تنس ان الاعتماد على الصنعة اسهل من الاعتماد على الطبع لان الاول يستدعي الاتباع والاخر يستدعي الابتداع ٠

مر بك ان اظهر ما في اسلوب ابن العميد الصنعة وانه هو الذي سن التزامها للكتاب من بعده وهنا مجال للبحث رأيت ان اعقد له فصلا خاصا تحت عنوان : (الصنعة في الادب العربي) اعالج فيه منشأها وعلة التهافت عليها .

الصنعة في الادب العربي

يعتقد كثير من الادباء ان الادب العربي في شعره ونثره كان ساذجاً بعيدا عن الصنعة منذ عصوره الاولى الى انقضاء الدولة الاموية وان ادخال الصنعة عليه كان بتأثير المولدين والمستعربين من الفرس الذين صار لهم شأن كبير في الدولة العباسية و يلزم من ذلك ان الفارسي ميال الى التزويق والتمويه وان الادب الفارسي مصنوع غير مطبوع .

هذا الرأي صحيح لا على اطلاقه فاساليب البيان والمحسنات اللفظية والمعنوية واقعة في شعر الجاهليين وفي القرآن الكريم وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الشعراء والفصحاء في صدر الاسلام والدولة الاموية ولكن لا على سبيل التتبع

والقصد والتعمد بل بقدر مستحسن ترتاح اليه النفس والاذن ويزيد المعنى وضوحا واللفظ قوة وحسنا.

وقد حمل ابو هلال العسكري على من ادعى ان انواع البديع ابتكرها المحدثون ولم يعرفها القدماء (١) . وقال ابن رشيق في كتاب العمدة : (ومن الشعر مطبوع ومصنوع فالمطبوع هو الاصل الذي وضع اولا وعليه المدار والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف اشعار المولدين لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل بعد ان عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد ان يكون قد فرغ في عملها في ساعة او ليلة وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك . والعرب لا تنظر في اعطاف شعرها بان تجنس او تطابق او تقابل فتترك لفظه للفظة او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط

---

(١) كتاب الصناعيين ص ٢٠٤

المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر واحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض)

والشواهد على ما ذكر كثيرة في اشعار الجاهليين كقول امريء القيس وفيه الطباق :

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول اوس بن حجر وفيه الجناس :

قد قلت للركب لولا انهم عجلوا

عوجوا على فحيوا الحي او سيروا

وكقول طرفة وفيه الترصيع :

بطيء عن الجلى سريع الى الخنا ذلول باجماع الرجال ملهد

الى غير ذلك من الامثلة الكثيرة في شعر الجاهلية .

وكذلك فقد وردت هذه الانواع واشباهها في القرآن الكريم قال صاحب الصناعتين : (لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لانه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل

في اوساط الايات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه كقول الله تعالى « الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور » وقوله عز وجل « ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : (ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه) .

وفي المثل السائر لضياء الدين ابن الاثير : (لو كان السجع مذموما لما ورد في القرآن الكريم فانه قداتي منه بالكثير حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور فمن ذلك قوله تعالى : (لعن الله الكافرين واعد لهم سعيرا خالدين فيها ابدا لا يجدون وليا ولا نصيرا) وكقوله تعالى في سورة طه : (طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر في القول فانه يعلم السر واخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) وكذلك قوله تعالى في سورة ق : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها والقينا فيها

رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج) وكقوله تعالى : (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فاثرن به نقعا فوسطن به جمعا) وامثال ذلك كثيرة .

وعلى هذا الاسلوب ورد من كلام النبي عليه السلام شيء كثير كقوله للانصار وفيه الطباق والجناس : « انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » وكقوله عند قدومه المدينة : « افشوا السلام واطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنه بسلام » وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استحيوا من الله حق الحياء قلنا انا لنستحيي من الله يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله ان تحفظ الراس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن اراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

وجاء في صبح الاعشى للقلقشندي : (ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريف اللغة طلبا للمزاوجة كقوله في تعويذة لابن ابنته : (اعيذه من الهامة والسامة والعين اللامة) واصلها في اللغة الملمة لانها من الم فعبر عنها باللامة لموافقة الهامة والسامة . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء :

(انصرفن مأزورات غير مأجورات) والاصل في اللغة ان يقال موزورات فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات .

وكذلك فقد وقعت الصنعة في كلام الشعراء والفصحاء في صدر الاسلام ودولة بني امية وايراد الشواهد من كلامهم يطيل نفس البحث وحسبي ان آتي بشاهد واحد من شعر جرير اطبع شاعر اموي . وهو قوله وفيه الطباق :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماليا

وتلك الشواهد كما ترى فيها ما يسمى بالصنعة ولكنها غير متكلفة بل تجري مع الطبع فما كان على هذه الشاكلة قبل والا نهي عنه كسجع الكهان لما فيه من التعسف والتكلف فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قضى على رجل في الجنين بغرة عبد او امة فقال الرجل : (أأدي من لا شرب ولا اكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل) فقال النبي عليه السلام «اسجعاً كسجع الكهان؟» .

على انهم كانوا يستعينون بالاساليب البيانية والمحسنات في المواقف الخطابيه والوعد والوعيد والترغيب والترهيب او في المواقف الشعرية المبنية على الخيال اما في غير ذلك من المواضع فقد

كانوا يميلون الى البساطة في التعبير . ورسائل النبي عليه السلام احسن مثال على ذلك وعلى سننها جرى الخلفاء الراشدون وخلفاء بني امية .

ثم لما قامت الدولة العباسية وتفاقم اختلاط العرب بالاعاجم لم يكن بالامكان ان تظل السلائق العربية خالصة لا سيما وقد استعرب من الاعاجم اضعاف العرب وكان الفرس اعظم تلك الامم خطرا في السياسة والعلم والادب فظهرت طبقة المولدين وفيهم العربي والمستعرب وحاولوا ان يسلكوا نهج العرب الخلص في كلامهم فحاكوهم واحسنوا المحاكاة وسمي ما ورد في كلامهم من المحسنات المعنوية واللفظية صنعة لانه مجتلب على سبيل الروية والمحاكاة لا على سبيل البديهة والسليقة سواء في ذلك الشعر والنثر . وما زالت الصنعة يعظم شانها ويكثر الاقبال عليها حتى انتهت في الكتابة الى ابن العميد فالتزمها في رسائله وجعلها اعظم اركان الكتابة وعمت جميع انواعها من غير تمييز بين المواقف الخطابية والشعرية وبين غيرها من المواقف البعيدة عن الدعوة والخيال حتى صارت عهود الخلفاء الى الملوك والوزراء والولاة والقواد والقضاة تصدر مسجعة من اولها الى اخرها كالعهود التي

كان يكتبها ابو اسحق الصابي عن الخليفة وتلك ظاهرة في الادب العربي غريبة جدا ·

فانت ترى ان منشأ الصنعة في البدء كان المحافظة على اساليب البلاغة العربية ومحاكاتها ثم افضى الى تلك النتيجة الغريبه في البعد عن الطبع العربي · وان الفرس لما اولعوا بالصنعة كان يرمون الى التشبه بالعرب في اساليبهم لا انهم نقلوا اساليب ادبهم الفارسي الي الادب العربي فقد ورد في تاريخ آداب الفرس للاستاذ براون ان الشعر الفارسي في عهد النهضة الفارسية كان بعيدا عن الصنعة والغلو · فابن العميد وامثاله من ادباء العربية الذين ينتمون الى اصل فارسي انصرفوا الى الصنعة معتقدين انهم يتوصلون بها الى اتقان البلاغة العربية ومحاكاة العرب الخلص في اساليبهم ولكنهم في تشددهم ولاسيما من جاء بعدهم من المتنطعين خرجوا بالبلاغة العربية عن طبيعتها من حيث ارادوا السلوك على سننها :

ابلغ ما يطلب النجاح به الطبـ

ع وعند التعمق الزلل

وبعد فالصنعة التي مصدرها الطبع والملاحظة هي في الكلام

كالاعضاء الحسنة في الجسم فاذا زادت عن القدر الطبيعي شوهت محاسن الجسم وان كانت هي حسنة كما لو صورت وجها وجعلت له خمس عيون نجل وعشرة حواجب مزججة فانه يزعجك او يضحكك

ابن العميد شاعرا

علت درجة الثقافة والتهذيب في عصر ابن العميد فاصبح الاديب يشارك في كثير من العلوم ولا يقنع بان ينصرف لجهة واحدة . ولعل ابن العميد من اوائل الكتاب الذين اكثروا من نظم الشعر فالمقدار الذي بقي من شعره يكاد يضارع ما بقي من نثره مع ان الرجل معروف بالكتابة اكثر من الشعر وهو الذي سن هذه السنة للكتاب من بعده كالصاحب ابن عباد وبديع الزمان الهمذاني والحريري فلقد اكثروا من قول الشعر بخلاف الكتاب المتقدمين الذين كان شعرهم قليلا كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ .

وشعر ابن العميد من الشعر المصنوع المتكلف في صوغه وتزويقه فيه كثير من الاستعارة والتشبيه والمحسنات المعنوية

واللفظية على نحو ما في نثره · حلو الالفـاظ سهل التراكيب ولكن يقل فيه الهام الشاعر على ان نفوذ بصره في اختيار الكلام وصحة ذوقه في اجتناب الوحشي المستكره تجعل شعره عـذبا متسلسلا ·

قال القلقشندي في صبح الاعشى انشد الصاحب ابن عباد بحضرة ابن العميد قول ابي تمام :

كريم متى امدحـه امدحـه والورى

معي واذا مالمتـه لمتـه وحـدي

فقال له ابن العميد هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهجنة فقـال نعم مقـابلة المدح باللوم وانمـا يقابل المـدح بالذم والهجاء فقال له ابن العميد غير هذا اريد قال لا ارى غير ذلك فقال ابن العميد هذا التكرير في امدحه امدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال نافر كل التنافر فاستحسن الصاحب ابن عباد ذلك · قال صاحب الصبح واول من نبه على ذلك الاستاذ ابن العميد رحمه الله ·

وهكذا فقد كان ابن العميد دقيق النقد في انتقاء الكلام ولكن المواضيع التي عالجها في شعره ليست بذات بال كالغزل

والعتاب والعميات والالغاز ولم اجد من نبه على توسط شعره من مترجميه غير ابن خلكان قال : (ولابن العميد شعر وما اعجبني الذي وقفت عليه منه حتى اثبته سوى ما ذكره ابن الصابي في كتاب الوزراء) على انه مقبول كشعر كاتب لا كشعر شاعر وقد قال ابنه ابو الفتح :

فان كان مسخوطا فقل شعر كاتب وان كان مرضيا فقل شعر كاتبي

وستطلع على امثلة من شعره في آخر هذه الرسالة .

صفته واخلاقه

عرف ابن العميد بكرم الاخلاق وادب النفس واخباره وبعض اقواله تدل على عقل راجح وادب عال وميل الى الجد ونفور من المزاح الماجن واقبال على العفة والتصون وكره للبأو والتبجح . ولعل لمنصبه في الوزارة دخلا كبيراً في اخذه بالجد والحزم لان احوال المملكة في ايامه والفتن التي تقع كانت تستدعي الحذر واليقظة والابتعاد عن الهزل في الحياة فمن كلامه قوله : « المزاح والهزل بابان اذا فتحا لم يغلقا الا بعد العسر ، وفحلان اذا القحا لم ينتجا غير الشر »

وروي انه وجد رقعة كتبها ابنه ابو الفتح الى بعض من ينبسط اليه وفيها بيتان يتماجن بهما فغضب وقال : امثل ولدي يكتب مثل هذا الفحش والفجور .

ولا شك ان اطلاعه الواسع على العلم والادب والحكمة صقل طبعه وزاد في تهذيب نفسه وجعله يحاكم الامور بميزان العقل كقوله : « اجتنب سلطان الهوى وشيطان الميل وغلبة الارادة » كما ان اضطلاعه بامور السياسة وتدبير المملكة وقيادة الجيوش طبعه على اللباقة وسوء الظن بالناس والحذر الدائم والاخذ بالحيطة والاحتراس قال :

آخ الرجال من الاباعد والاقارب لا تقارب
ان الاقارب كالعقارب بل اضر من العقارب

على انه مع هذه الحيطة كان مشهوراً بحسن الصحبة ودماثة الاخلاق قال ابن الاثير في الكامل : « كان ابو الفضل ابن العميد من محاسن الدنيا قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك والكتابة التي اتى فيها بكل بديع وكان عالما في عدة فنون منها الادب فانه كان من العلماء به ومنها حفظ اشعار العرب فانه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله

فانه كان ماهرا فيها مع سلامة اعتقاد الى غير ذلك من الفضائل ومع حسن خلق ولين عشرة مع اصحابه وجلسائه وشجاعة تامة ومعرفة بامور الحرب والمحاصرات وبه تخرج عضد الدولة ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء)

وكان الصاحب ابن عباد قد سافر الى بغداد فلما رجع اليه قال له كيف وجدتها فقال ! (بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد)

ومن كلام ابن العميد في حفظ الاصحاب قوله : (قد يبذل المرء ماله في اصلاح اعدائه ، فكيف يذهل العاقل عن حفظ اوليائه) وقول الثعالبي : « ان احسن رسائله الاخوانيات » يدل على وفائه ولين جانبه ودماثة اخلاقه .

قال صاحب تجارب الامم وهو ممن صاحب ابن العميد مدة طويلة : (كان الاستاذ رضي الله عنه قليل الكلام نزر الحديث الا اذا سئل ووجد من يفهم عنه فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره مع عبارة فصيحة والفاظ متخيرة ومعان دقيقة لا يتحبس فيها ولا يتلعثم ، ثم رأيت بحضرته جماعة ممن يتوسل اليه بضروب من الآداب والعلوم فما احد منهم كان يمتنع من تعظيمه في ذلك الفن الذي قصده به واطلاق القول بانه لم ير

مثله ولا ظن انه يخلق . وكان رحمه الله لحسن عشرته وطهارة اخلاقه ونزاهة نفسه اذا دخل اليه اديب او عالم متفرد بفن سكت له واصغى اليه واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه الا قدر ما يفهم به ما يورد عليه حتى اذا طاوله واتت الشهور والسنون على محاضرته واتفق له ان يسأله عن شيء او يجري بحضرته نبذ منه فرغب اليه في اتمامه تدفق حينئذ بحره وجاش خاطره وبهت من كان عند نفسه انه بارع في ذلك الفن والمعـنى وما اكثر من خجل عنده من المعجبين بانفسهم ولكن بعد ان يمد لهم في الميدان ويرخي من اعنتهم ويمسك عنهم مدة حتى ينفد ما عندهم و يجزل لهم العطاء عليه)

. . .

كان ابن العميد يعظم من شأن السلطان كثيرا ويرى ان بصلاحه صلاح الناس بل صلاح الزمان ايضا قال : (المرء اشبه شيء بزمانه، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه) والفرس من اكثر الامم تعظيما لملوكهم لانهم كانوا قبل الاسلام يعتقدون ان سلطة ملوكهم مستمدة من الله فضلا عن ان ابن العميد رجل حكومة يعظم شأنه بمقدار ما يعظم شأن سلطانه .

مر بك ان ابن العميد كان عالما بالنجوم و كأن تمكنه من هذا العلم جعله يقول بالتنجيم واحكامه فقد ذكر صاحب معجم الادباء في ترجمة ابنه ابي الفتح ما نصه : (حدث احد اصحاب ابي الفضل ابن العميد المختصين به قال كان ابو الفتح ابن ابي الفضل يباكر اباه في كل يوم ويدخل اليه قبل كل احد فاتفق ان دخل يوما وانا جالس عنده فلما رآه مقبلا في الصحن وشاهد عمته و كانت ديلمية ومشيته وهو يختال فيها ويسرف في تلويها عجب من ذاك وقال لي : اما ترى الى هذه العمة وهذه المشية في مخالفتها لعادتنا ومفارقتها طريقتنا فقلت قد رأيت وان رسم الاستاذ ان اخاطبه فيها وانهاه عنها فعلت فقال لا تفعل فانه قصير الغمز وما احب ان ادخل على قلبه هما ولا امنعه هوى . وقد روي انه وجد له رقعة كتبها الى بعض من ينبسط اليه وفيها :

اديبنا المعروف بالكردي . . . . .

. . . .

فلما وقف ابن العميد ابوه على ذلك غضب وقال امثل ولدي يكتب مثل هذا الفحش والفجور ثم قال والله لولا و لولا و لولا ثم امسك كأنه يشير الى ما حكم له من سوء العاقبة وقصر العمر)

وقال ياقوت في معجم الادباء : (قال ابو حيان حدثني ابو الطيب الكيميائي قال قلت لابي الفضل بعد ان سم الحاجب النيسابوري و بعد ان خطب على حمد ودس الى ابن هند وغيرهم من اهل الكتابة والمروءة والنعم لو كففت فقد اسرفت فقال يا ابا الطيب انا مضطر قال فقلت واي اضطرار ههنا والله ان مخادعتنا لانفسنا في ضرنا ونفعنا لا عجب من مكابرة غيرنا لنا في خيرنا وشرنا وهذا والله رين القلوب وصدأ العقل وفساد الاختيار و كدر النفس وسوء العادة وعدم التوفيق فقال يا ابا الطيب انت تتكلم بالظاهر وانا احترق في الباطن قال فقلت ان كان عذرك في هذه السيرة المخالفة لاهل الديانة واصحاب الحكمة قد بلغ هذا الوضوح والجلاء فانك معذور عندنا ولعلك ايضا ماجور عند الله مالك الجزاء وان كنت تعلم حقيقة ما تراجعني عليه القول وتناقلني به الحجاج انك من الخاسرين الذين باءوا بغضب من الله على مذاهب الناس اجمعين فبكي فقلت له البكاء لا ينفع ان كان الاقلاع ممكنا والندم لا يجدي متى كان الاصرار قائما هذا كله بسبب ابنك ابي الفتح والله ان ايامه لا تطول وان عيشه لا يصفو وان حاله لا يستقيم وله اعداء لا يتخلص منهم وقد دل

مولده على ذلك وانك لا تدفع عنه قضاء الله وهو لا يغني عنك من الله شيئا فعليك بخويصة نفسك)

وكأن طول باعه في الفلسفة كان السبب في اتهام بعضهم اياه في دينه قال صاحب معاهد التنصيص : « وكان ابن العميد متفلسفا متهما برأي الاوائل » يعني الفلاسفة · وقال ابن العماد في شذرات الذهب في اخبار من ذهب : « كان ابن العميد فيلسوفا متهما برأي الحكماء · »

مع ان ابن الاثير قال بسلامة اعتقاده · ومهما يكن فان الحملة على ابن العميد من هذه الجهة كانت اخف من الحملة على غيره من النابهين كابن المقفع الذي رمي بالزندقة والجاحظ الذي رمي بعدم الثقة في دينه لانه لم يتعرض لغضب سلطان او مناوأة فرقة دينية ·

على انه ليس في افعاله ولا اقواله شيء يستدل به على ما اتهم به من الانحراف عن العقيدة الاسلامية بل هناك حادثة تشهد بصحة ايمانه واخلاصه للاسلام وذلك ان ركن الدولة خذل في احدى وقائعه وانقطعت به الاسباب فدعا ابن العميد يستشيره في حيلة للانهزام فقال له ابن العميد : « لا مفزع لك الا الى الله عز

وجل فاخلص نيتك له واعقد عزيمتك على ما بينك وبينه تعالى يطلع على صدقها ويعرف صحتها وانو للمسلمين خيرا ولكافة الناس مثله وعاهده على ماتعمله وتفي به من الاعمال الصالحة والاحسان فيما تلي الى من تلي عليه فان الحيل البشرية كلها انقطعت بنا ولم يبق لنا الا هذا الذي نصحتك به (١)

والذي يغلب على الظن ان الرجل كان يتشيع على مذهب الزيدية لان اكثر اهل مدينة قم « بلدة اسرته » شيعة زيدية ولان الدولة البويهية التي كان وزيرها كانت شيعية ايضا . ويذهب مذهب الاعتزال في التوحيد لشدة اعجابه بالجاحظ وتوفره على دراسة كتبه .

. . .

هذا ولقد الف ابو حيان التوحيدي كتابا في مثالب ابن العميد والصاحب ابن عباد دعاه مثالب الوزيرين وذلك بعد ان ذهب الى الري وصحب ابن العميد ثم ابن عباد فلم يحمدهما قال ابن خلكان : « مثالب الوزيرين لابي حيان التوحيدي ضمنه معايب ابن العميد والصاحب ابن عباد وتحامل

---

(١) تجارب الامم ج (٦) ص ١٤١

عليهما وعدد نقائصهما وسلبهما ما اشتهر عنهما من الفضائل والافضال و بالغ في التعصب عليهما وما انصفهما »

على ان ابا حيان نفسه ما كان يجحد فضل الوزيرين في مثالبه قال صاحب معجم الادباء في ترجمة الصاحب ابن عباد: « قال ابو حيان عند ما قارب الفراغ من كتابه في اخلاق الوزيرين ولولا ان هذين الرجلين اعني ابن عباد وابن العميد كانا كبيري زمانهما واليهما انتهت الامور وعليهما طلعت شمس الفضل وبهما ازدانت الدنيا وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشر والقبيح يوءثر عنهما اثرا لكنت لا اتسكع في حديثهما هذا التسكع ولا انحي عليهما بهذا الحد ولكن النقص ممن يدعي التمام اشنع والحرمان من السيد المأمول فاقرة والجهل من العالم منكر والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب ولو اردت مع هذا كله ان تجد لهما ثالثا في جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المورخ في الكتاب لم تجد »

و كتاب المثالب مفقود ولكن بعض من ترجم لابن العميد والصاحب وابي حيان اقتبس شيئا منه ومايتعلق بابن العميد من ذلك لايعد نقيصة من ذلك قول ابي حيان: (قلت لابي السلم نجبة بن على

القحطاني الشاعر اين ابن عباد من ابن العميد فقال زرتهما منتجعا وزرتهما جميعا وكان ابن العميد اعقل وكان يدعي الكرم وابن عباد اكرم ويدعي العقل وهما في دعواهما كاذبان وعلى سجيتهما جاريان) (١)

وقال ابو حيان في كتاب الوزيرين : « جرى بيني (٢) وبين ابي علي مسكويه شيء قال لي مرة اما ترى الى خطأ صاحبنا وهو يعني ابن العميد في اعطائه فلانا الف دينار ضربة واحدة لقد اضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق فقلت بعد ما طال الحديث وتقطع بالاسف ايها الشيخ اسألك عن شيء واحد فاصدق فانه لامدب للكذب بيني و بينك او غلط صاحبك فيك بهذا العطاء و باضعافه واضعاف اضعافه اكنت تخيله في نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا او جاهلا بحق المال او كنت تقول ما احسن ما فعل وايته اربي عليه فان كان الذي تسمع على حقيقة فاعلم ان الذي يرد و رد مقالك انما هو الحسد او شيء آخر من جنسه وانت تدعي الحكمة وتتكلف في الاخلاق وتزيف الزائف وتختار منها المختار فافطن لامرك واطلع على سرك وشرك)

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣٠١ (٢) معجم الادباء ج ٥ ص ٤٠٦

وهناك قصة رواها ابو حيان في مثالب الوزيرين تتلخص في ان شاعرا مدح ابن العميد فتأخرت صلته فذهب مغاضبا فالتمسه ابن العميد ليعتذر اليه فلم يجده وقد ذكر ابو حيان ان اسم ذلك الشاعر المنطقي وذكر غيره انه ابن نباتة السعدي وسترد في اخبار ابن العميد فانت ترى ان كل ما نسب الى ابن العميد من المثالب لا يقدح في عقل الرجل وادبه ولا في اخلاقه ومروءته على ان العصمة لله وحده .

اخبار ابن العميد

ابن العميد والجاحظ

قال ابو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ الرئيس ابي الفضل (ابن العميد) فقصر رجل بالجاحظ وازرى عليه وحلم الاستاذ عنه فلما خرج قلت له سكتت ايها الاستاذ عن هذا الجاهل في قوله مع عادتك بالرد على امثاله فقال لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه لصار انسانا يا ابا القاسم كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا .

وكان ابن العميد يقول : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة انفس اما الفقه فعلى ابي حنيفة واما الكلام فعلى ابي الهذيل واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ

ابن العميد والمتنبي

جاء في خزانة الادب للبغدادي : (تيقن ابو الطيب استقرار ابي الفضل ابن العميد بارجان وانتظاره له — وكان ابن العميد يخرج في السنة من الري خرجتين الى ارجان = فاستعد للمسير وحدثنا ابو الفتح عثمان ابن جني عن علي بن حمزه البصري قال كنت مع المتنبي لما ورد ارجان فلما اشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن فضرب بيده على صدره وقال تركت ملوك الارض وهم يتعبدون بي وقصدت رب هذه المدرة فما يكون منه ثم وقف بظاهر المدينة وارسل غلاما على راحلته الى ابن العميد فدخل عليه وقال مولاي ابو الطيب المتنبي خارج البلد وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دسته فثار من مضجعه واستثبته ثم امر حاجبه باستقباله فركب واستركب من لقيه في الطريق ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقوه وقضوا حقه وادخلوه

البلد فدخل على ابي الفضل فقام له من الدست قيـاما مستويا وطرح له كرسي عليه مخدة ديباج وقال ابو الفضل كنت مشتاقا اليك يا ابا الطيب ثم افاض المتنبي في حديث سفره وان غلاما له احتمل سيفا وشذ عنه واخرج من كمه عقيب هذه المفاوضة درجا فيه قصيدته :

« باد هواك صبرت ام لم تصبرا »

فوحى ابو الفضل الى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار وسيف غشاوءه فضة وقال هذا عوض عن السيف المأخوذ وافرد له دار نزلها فلما استراح من تعب السفر كان يغشى ابا الفضل كل يوم ويقول ما ازورك اكبابا الا لشهوة النظر اليك ويوءا كله وكان ابو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه . فاظلهم النيروز فارسل ابو الفضل بعض ندمائه الى المتنبي يقول كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه فلم يحر جوابا الى ان حضره النيروز وانشده مهنئاً ومعتذرا فقال:

هل لعـذري الى الهمام ابي الفضـ

ـل قبول سواد عيني مـداده

ما كفاني تقصير ما قلت فيـه

عن علاه حتى ثناه انتقاده

انني اصيد البزاة ولكن

اجل النجوم لا اصطاده

ما تعودت ان ارى كأبي الفضـ

ـل وهذا الذي اتاه اعتياده

ابن العميد وابن نباتة السعدي

ورد ابو نصر عبد العزيز ابن نباتة السعدي على ابن العميد وهو بالري وامتدحه بقصيدته التي اولها :

برح اشتياق وادكار ولهيب انفاس حرار

فتأخرت صلته عنه فشفع هذه القصيدة باخرى واتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد من الاهمال مع رقة حاله التي ورد عليها الى بابه فتوصل الى ان دخل عليه يوم الخميس وهو في مجلس حفل باعيان لدولة ومقدمي ارباب الديوان فوقف بين يديه واشار اليه بيده وقال ايها الرئيس اني لزمتك لزوم الظل وذللت لك ذل النعل واكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك والله مابي من الحرمان ولكن شماتة الاعداء وهم قوم نصحوني فاغششتهم

وصدقوني فاتهمتهم فبأي وجه القاهم وباي حجة اقاومهم ولم احصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم الا على ندم موءلم ويأس مستقم فان كان للنجاح علامة فاين هي وما هي ؟ الا ان الذين نحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك وان الذين هجوا كانوا مثلك فزاحم بمنكبك اعظمهم شانا وانورهم شعاعا وامدهم باعا واشرفهم بقاعا . فحار رشد ابن العميد ولم يدر ما مايقول فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال هذا وقت يضيق عن الاطالة منك في الاستزادة وعن الاطالة مني في المعذرة واذا تواهبنا مادفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه . قال ابن نباتة ايها الرئيس هذه نفثة مصدور منذ زمان وفضلة لسان قد خرس منذ دهر والغني اذا مطل لئيم . فاستشاط ابن العميد وقال والله ما استوجبت هذا العتب من احد من خلق الله . ولقد نافرت ابن العميد من دون ذا حتى دفعنا الى قرا عائم ولجاج قائم ولست ولي نعمتي فاحتملك ولا صنيعتي فاغضي عليك وان بعض ما اقررته في مسامعي ينغض مرة الحليم ويبدد شمل الصبر هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول ولا سألتك مدحي ولا كلفتك تقريضي . فقال ابن نباتة صدقت ايها الرئيس ما استقدمتني بكتاب

ولا استدعيتني برسول ولا سألتني مدحك ولا كلفتني تقريضك ولكن جلست في صدر ديوانك بابهتك وقلت لا يخاطبني احد الا بالرياسة ولا ينازعني خلق في احكام السياسة فاني كاتب ركن الدولة وزعيم الاولياء والحضرة والقيم بمصالح المملكة فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال . فثار ابن العميد مغضبا واسرع في صحن داره الى ان دخل حجرته وتقوض المجلس وماج الناس وسمع ابن نباتةوهو في صحن الدار مارا يقول: والله ان سف التراب والمشي على الجمر اهون من هذا فلعن الله الادب اذا كان بائعه مهينا ومشتريه مما كسا فيه . فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب اليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر اليه ويزيل آثار ما كان منه فكأنما غاص في سمع الارض وبصرها فكانت حسرة في قلب ابن العميد الى ان مات .

قال ابن خلكان : وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباتة و كشفت ديوان ابن نباتة فلم ار هذه القصيدة فيه ثم وجدت في كتاب ثلب الوزيرين تأليف ابي حيان التوحيدي هذه القصيدة لابي محمد عبد الرزاق بن الحسن المنطقي وهذه المخاطبة لشاعر من اهل الكرخ يعرف بموتة .

ابن العميد يطارح الشعراء

اجتمع عند ابن العميد يوما ابو محمد هندو وابو القاسم ابن ابي الحسين بن سعد وابو الحسين ابن فارس وابو عبد الله الطبري وابو الحسن البديهي فحياه بعض الزائرين باترجة حسنة فقال لهم تعالوا نتجاذب اهداب وصفها فقالوا ان رأى سيدنا ان يبتدىء فعل فابتدأ وقال : « واترجة فيها طبائع اربع »

فقال ابو محمد : « وفيها فنون اللهو للشرب اجمع »

فقال ابو القاسم :« يشبهها الرائي سبيكة عسجد »

فقال ابو الحسين ابن فارس :«على انها من فارة المسك اضوع»

فقال ابو عبدالله الطبري :«وما اصفر منها اللون للعشق والهوى»

فقال ابو الحسن البديهي : «ولكن اراها للمحبين تجمع»

رقية النقرس

دخل ابو بشر الفارسي الحافظ وكان متقدما في علم العربية متأخرا في قول الشعر على ابن العميد يوما وقد هاج به النقرس فانشده :

شكى النقرس نقريس اخو علم ونطيس
فما دام لكم قوس فنفسي لكم جوس

فقال له يا ابا بشر هذه رقية النقرس .

ذوقه في الشعر

قال ابن خلكان كان ابن العميد كثير الاعجاب بقول بعضهم :

وجاءت الى ستر على الباب بيننا تخاف وقد قامت عليه الولائد
لتسمع شعري وهو يقرع قلبها بوحي تؤديه اليه القصائد
اذا سمعت مني لطيفا تنفست له نفسا تنقد منه القلائد

. . .

ابن العميد وابو الفرج الكاتب

كان ابو الفرج احمد بن محمد الكاتب مكينا عند مخدومه ركن الدولة ابن بويه وكان ابن العميد لايوفيه حقه من الاكرام فعاتبه مرارا فلم يفد فكتب اليه :

مالك موفور فما باله   اكسبك التيه على المعدم
ولم اذا جئت نهضنا وان   جئنا تطاولت ولم تتمم
وان خرجنا لم تقل مثل ما   نقول : قدم طرفه قدم
ان كنت ذا علم فمن ذا الذي   مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة   ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما   انت فلم نصغر ولم تعظم
تكافأت احوالنا كلها   فصل على الانصاف اوفاصرم

اهتمامه بخزانة كتبه

ورد مرة غزاة من خراسان الى الري فثاروا بها ونهبوا دار ابن العميد وخزائنه . قال صاحب تجارب الامم وكان الي خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه فلما انصرف الى منزله ليلا لم يجد

فيه ما يجلس عليه واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء اعز عليه منها
وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من انواع الحكم والآداب
تحمل على مائة وقر وزيادة فلما رآني سألني عنها فقلت هي
بحالها لم تمسها يد فسري عنه وقال اشهد انك ميمون النقيبة اما
سائر الخزائن فيوجد منها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض
منها ورأيته قد اسفر وجهه ·

نصوص من كلام ابن العميد

رسالة وعيد واستصلاح

كتب عن ركن الدولة الى ابن بلكا لما استعصى عليه :

كتابي وانا مترجح بين طمع فيك ، وإياس منك ، واقبال عليك ، واعراض عنك ، فانك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، ايسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وادنى ذلك يحبط اعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ، لا جرم اني وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، اقدم رجلا لصدمك ، واؤخر اخرى عن قصدك ، وابسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، واثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، واتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسدُ العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فالى

رخاء ، وكل غمرة فالى انجلاء ، وكما انك اتيت من اساءتك ما لم تحتسبه اولياؤك ، فلا تدع ان تأتي من احسانك ما لم ترتقبه اعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمي في الابقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء والمطاولة ما امكن ، طمعا في انابتك ، وتحكيما لحسن الظن بك ، فلست اعدم فيما اظاهره من اعذارك ، واردفه من انذارك ، احتجاجا عليك ، واستدراجا لك فان يشأ الله يرشدك ، و يأخذ بك الى حظك ويسددك ، فانه على كل شيء قدير ، و بالاجابة جدير .

(فصل منها) : وزعمت انك في طرف من الطاعة بعد ان كنت متوسطها ، واذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك ، كيف وجدت ما زلت عنه و كيف تجد ما صرت اليه ؟ الم تكن من الاول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء ندي ، وماء روي ، ومهاد وطي ، و كن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من

نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة ، و كثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وايسرت بعد العسرة ، واثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ، ووطيء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر و يكاثر بك ، وتشير و يشار اليك ، و يذكر على المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك ، ففيم انت الان من الامر ؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ؟ وما استفدت حين اخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذي اظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ اظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللاهب ؟ قل : نعم كذلك ، فهو والله اكثف ظلالك في العاجلة واروحها في الآجلة ، ان اقمت على المحادة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود .

ومنها : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما حنى عليه اضلاعك هل تجد في عرضها قلبك ؟ وهل حلا بصدرك ان تظفر بفوت سريخ ، او موت مريح ؟ ثم قس غائب امرك بشاهده ، وآخر شانك باوله ،

وصف سفن

من رسالة له جاء فيها :

(... وكأن العشاريات وقد رديت بالقار ، وحليت باللجين والنضار ، عرائس منشورة الذوائب ، مخضوبة الحواجب ، موشحة المناكب ، مقلدة الترائب ، متوجة المفارق ، مكللة العواتق ، فضية الحلل والقراطق . او طواويس ابرزت رقابها ، ونشرت اجنحتها واذنابها ، وكأنها اذا جدت في اللحاق ، وتنافست في السباق ، نوافر نعام ، او حوافل انعام ، او عقارب شالت بالابر ، او دهم الخيل واضحة الحجول والغرر . وكأن المجاديف طير تنفض خوافيها ، او حبائب تعانق حبائب بايديها ...)

رسالة في فتح

وكتب رسالة في ذكر فتح جاء منها :

« ... وقد خصنا الله تعالى معاشر عبيد الامير عضد الدولة بنعمة يعلو مراتب النعم موقعها ، و يفوت مقدار المواهب موضعها ، فباسمه ابقاه الله فتح الفتح ، و بشعاره استنزل النجح ،

و بيمن نقيبته فرج الكرب ، وبسعادة جده كشف الخطب ، و باهتزازه للدولة وحمـايته عاد اليها ماؤها ، وراجعها بهاؤها ، فعز الملك ونصر ، وذل العدو وقهر ، وحميت اطراف الدولة ، وحفظت اكناف الملة ، واستجد نظـام النعمة ، وسدلت ستور الصيانة دون الحرمـة . ولو جعل المولى تقـدس اسمه لنعمته اذا تناهت على عبيده جزاء غير الاخلاص في شكره . وقبل مـا في المقابلة الموهبة التي يستجدها عند خلقه غير الاغراق في حمـده ، لرأيت ان لا اقتصر في قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ، ولجعلنا في صدر عن هذه النعمة الاعزين الاهل والولد ، والانصرين الساعد والعضد ، بل العميدين القلب والكبد ، بل النفس كلها والمهجة باسرها»

رسالة تهنئة

كتب الى عضد الدولة وقد ولد له ابنان توأمان : « وصل كتاب الامير بالبشرى التي ابت النعمة بهـا ان تقع مفردة ، وامتنعت العارفة فيها ان تسنح موحدة ، حتى تيسرت منحتان في وطن ، وانتظمت موهبتـان في قرن ، وطلع من النجيبين ابي

القاسم وابي كاليجار — ادام الله عزهما — طالعا ملك ، ونجما سعد ، وشهابا عز ، وكوكبا مجد ، فتأهلت بهما رباع المحاسن ، ووطئت لهما اكناف المكارم ، واستشرفت اليهما صدور الاسرة والمنابر . وفهمته وشكرت الله تعالى شكر من نادى الآمال فاجابته مكتبة ، ودعا الاماني فجاءته مصحبة ، وحمدته حمدا مكافئا جسيم ماتاح وعظيم ماافاد . واكتنفني من السرور مافسح مناهج الغبطة ، وسهل موارد البهجة ، وأشعت ماورد اشاعة شرحت صدور الاولياء بمسارها ، وازعجت قلوب الاعداء عن مقارها ، وسألت الله اتمام ما آذن به الاميران السيدان من سعادة لايهتدي اليها الاختيار علوا ، ولا ترتقي اليها الافكار سموا ، وسلطان تضيق البحار عن اتساعه ، وتنخفض الافلاك عن ارتفاعه ، و يبلغهما افضل ماتقسمه السعود ، وتعلو به الجدود حتى يستغرقا مع السابقين اخوتهما مساعي الفضل ، و يشيدا قواعد الفخر ، و يزجما صروف الدهر ، و يضبطا اطراف الارض ، وهو تعالى قريب مجيب »

وكتب ايضا الى عضد الدولة بهذا المعنى :

اطال الله بقاء الامير الاجل عضد الدولة دام عزه وتأييده

وعلوه وتمهيده ، و بسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده ، وهناه ما احتظاه به على قرب البلاد ، من توافر الاعداد ، وتكثر الامداد ، وتثمر الاولا ، واراه من النجابة في البنين والاسباط ، ما اراه من الكرم في الآباء والاجداد ، ولا اخلى عينه من قرة ، ونفسه من مسرة ، ومتجدد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادة في عدده ، وفسح في امده ، حتى يبلغ غاية مهله ، ويستغرق نهاية امله ، ويستوفي ما بعد حسن ظنه وعرفه ، الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحفا بسريره ، وجعل وفدهما متلائمين ، وورودهما توأمين ، بشيرين بتظاهر النعم وتوافر القسم ، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرق الفضا ، ويشرق بنورهم افق العلا وينتهي بهم امد النماء الى غاية تفوت غاية الاحصاء ولا زالت السبل عامرة والمناهل غامرة ، بصفائح صادرهم بالبشر وآملهم بالنيل القاصد .

جواب الى عضد الدولة

كتب الى عضد الدولة كتابا منه :

«٠٠ وقد(١) يعد اهل التحصيل في اسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها والاحوال الداعية الى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء والموتان العارض من عموم الاوباء وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء فان كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث اصولها اجتثاثا. وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب مايولده تسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته فان البلاء به لايعدله بلاء. و بحسب عظم المحنة بمن هذه صفته والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالامير الجليل الذي احله الله من الفضائل بملتقى طرقها ومجتمع فرقها وهي نواد نوافر ممن لاتقف حتى تصير اليه وشوارد نوازع حيث حلت حتى تقع علية تتلفت اليه تلفت الوامق وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق قد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع.

فان تغش قوما بعده او تزورهم فكالوحش يدنيها من الانس المحل

---

(١) اثبت هذا الفصل الثعالبي في يتيمة الدهر واورد الحصري في زهر الآداب جزأ اطول منه نقلناه في الصفحة (٤٦) من هذه الرسالة

كتاب الى الصاحب ابن عباد

كان الصاحب ابن عباد يروي لابن العميد كلاما في رقعة اليه حين استكتبه لمؤيد الدولة وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم . مولاي وان كان سيداً بهرتنا نفاسته وابن صاحب تقدمت علينا رئاسته فانه يعدني سيدا ووالدا كما اعده ولدا واحدا ومن حق ذلك ان يعضد رأيي برأيه ليزداد استحكاما وتتظاهر عقدا وابراما . وحضرت اليوم مجلس مولانا ركن الدولة ففاوضني ماجرى بينه و بين مولاي طويلا ووصل به كلاما بسيطا واطلعني على ان مولاي لايزيد بعد الاستقصاء والاستيفاء على التقصي والاستعفاء والزم عبده ان اكره مولاي اكراه المسألة واجبره اجبار الطلبة علما بانه ان دافع المجلس المعمور طلبا للتحرز لم يرد وساطتي اخذاً بالتطول واقول بعد ان اقدم مقدمة : مولاي غني عن هذا العمل بتصونه وتصلفه وعزوفه و بهمته عن التكثر بالمال وتحصيله لكن العمل فقير الى كفايته محتاج الى كفالته وما اقول ان مرادي مايعقد من حساب وينشأ من كتاب و يستظهر به من جمع و يذر من عطاء ومنع فكل

ذلك وان كان مقصودا وفي آلات الوزارة معدودا ففي كتاب مولاي من يفي به و يستوفيه و يوفي عليه مايسر مساعيه ٠ ولكن ولي النعمة يريد لتهذيب ولده ومن هو ولي عهده من بعده والمأمول ليومه وغده ادام الله ايامه و بلغه فيه مرامه ٠ ولا بد وان كان الجوهر كريما والسنخ قديما والمجد صميما ومركب العقل سليما من مناب من تعلم (كذا) ماالسياسة وما الرئاسة و كيف تدبير العامة والخاصة و بماذا تعقد المهابة ومن اين تجتلب الاصالة والاصابة و كيف ترتب المراتب و يعالج الخطب اذا ضاقت المذاهب وتعصى الشهوة لتحرس الحشمة وتهجر اللذة لتخص الامرة ولا بد من محتشم يقوم في وجه صاحبه فيراده اذا بدر منه الرأي المنقلب و يراجعه اذا جمح به اللجاج المرتكب و يعاوده اذا ملكه الغضب الملتهب فلم يكن السبب في ان فسدت ممالك جمة و بلدان عدة الا ان خفضت اقدار الوزارة فانقبضت اطراف الامارة ٠ وليس يفسد على ما ارى بقية الارض الا اذا استعين باذناب على هذا الامر ٠ فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته فمن هذه الدولة جرى مافضله وفضل الشيخ الامين قبله وان كان مسموعا كلامي وموثوقا باهتمامي فلا يقعن انقباض عني

واعراض عما سبق مني ومولاي محكم الاجابة الى العمل فيما يقترحه وغير مراجع فيما يشترطه وهذا خطي به وهو على ولي النعمة حجة لا يبقى معها شبهة وساتبع هذه المخاطبة بالمشافهة اما بحضوري لديه او بتجشمه الى هذا العليل الذي قد الح النقرس عليه ·

رسائله الاخوانيات

كتب الى ابي العلاء السروري في شهر رمضان :

كتابي جعلني الله فداك وانا في كد وتعب منذ فارقت شعبان وفي جهد ونصب من شهر رمضان وفي العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من الم الجوع ووقع الصوم ومرتهن بتضاعف :

حرور لو ان اللحم يصلى ببعضها
غريضا اتى اصحابه وهو منضج

وممتحن بهواجر يكاد اوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنف ويزويه عن التنصر يقبض يده عن امساك ساق وارسال ساق :

ويترك الجأب في شغل عن الحقب
ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقدمالت هواديها :
سجودا لدى الارطى كأن رؤوسها
علاها صداع او فواق يصورها

وكما قال الفرزدق :

ليوم اتت دون الظلال شموسه تظل المها صورا جماجمها ماتعلى

وكمال قال مسكين الدارمي :

وهاجرة ظلت كأن ظباءها اذا ماالتقتها بالقرون سجود
تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذ من وخز السنان طريد

وممنو بايام تحاكي ظل الرمح طولا وليال كابهام القطاة قصرا ونوم كلاولاقلة وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفيقة الطائر المستحر خفة :

كما ابرقت قوما عطاشا غمامة فلما رجوها اقشعت وتجلت
وكنقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع الرطب

واحمد الله على كل حال واسأله ان يعرفني فضل بركته ويلقيني الخير في باقي ايامه وخاتمته وارغب اليه في ان يقرب على

القمر دوره و يقصر سيره و يخفف حركته و يعجل نهضته وينقص مسافة فلكه ودائرته و يزيل بركة الطول من ساعاته و يرد علي غرة شوال فهي اسر الغرر عندي واقرها لعيني و يسمعني النعرة في قفا شهر رمضان و يعرض على هلاله اخفى من السر واظلم من الكفر وانحف من مجنون بني عامر واضنى من قيس ابن ذريح وابلى من اسير الهجر و يسلط عليه الحور بعد الكور و يرسل على رقاقته التي يعشي العيون ضوءها و يحط من الاجسام نوءها كلفا يغمرها و كسوفا يسترها و يريديه مغمور النور مقمور الظهور قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة و ينقص من اطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند و يبعث عليه الارضة و يهدى اليه السوس ويغري به الدود و يبليه بالفار ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل و يجتحفه بالذر و يجعله من نجوم الرجم و يرمي به مسترق السمع و يخلصنا من معاودته و يريحنا من دوره و يعذبه كما عذب عباده وخلقه و يفعل به فعله بالكتان و يمنع به صنعه بالالوان و يقابله بما تقتضيه دعوة السارق اذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه – و يرحم الله عبدا قال آمينا– واستغفر الله جل وجهه مما قلته ان كرهه واستعفيه من توفيقي لما يذمه

واسأله صفحا يفيضه وعفوا يوسعه انه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . وحالي بعد ماشكوته صالحة وعلى ماتحب وتهوى جارية ولله الحمد تقدست اسماؤه والشكر .

وكتب الى بعض اخوانه جوابا عن كتاب ورد اليه :

وصل ماوصلتني به جعلني الله فداك من كتابك . بل نعمتك التامة ومنتك العامة فقرت عيني بوروده وشفيت نفسي بوفوده ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر وتنفس الانوار في السحر وتأملت مفتتحه وما اشتمل عليه من لطائف كلمك وبدائع حكمك فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك وضروب الفضل منك جدا وهزلا ملأ عيني وغمر قلبي وغلب فكري وبهر لبي فبقيت لاادري اسموط در خصصتني بها ام عقود جوهر منحتنيها ؟ كما لاادري ابكراً زففتها فيه ام روضة جهزتها منه ؟ ولاادري أجدك ابلغ والطف امهزلك ارفع واظرف ؟ وانا اوكل بتتبع ماانطوى عليه نفسا لاترى الحظ الا مااقتنته منه ولا تعد الفضل الا فيما اخذته عنه وامتع بتأمله عينا لاتقر الا بمثله مما يصدر عن يدك ويرد من عندك واعطيه نظرا لايمله وطرفا لايطرف دونه واجعله مثالا ارتسمه واحتذيه وامتع خلقي برونقه

واغذي نفسي ببهجته ، وامزج قريحتي برقته واشرح صدري بقراءته . ولئن كنت عن تحصيل ماقلته عاجزا ، وفي تعديدماذكرته متخلفاً ، لقد عرفت انه ما سمعت به من السحر الحلال .

وكتب الى القاضي ابن خلاد :

وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت لكل ما اوليت ، وابتهجت بجميع ما اهديت ، واضفت احسانك في كل فصل الى نظائره التي وكلت بها ذكري ، ووقفت عليها شكري ، وتأملت النظم فملكني العجب به ، وبهرني التعجب منه ، وقد رمت ان اجري على العادة في تشبيهه بمستحسن من زهر جني ، وحال وحلي ، وشذور الفرائد ، في نحور الخرائد

كالعذارى غدون في الحلل البيض

وقد رحن في الخطوط السود

فلم اره لشيء عدلا ، ولا ارضى ماعددته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ولايخليك من احسانه ، ويلهمك من بر اخوانك ، ماتتمم به صنيعك لديهم ، وترب معه احسانك اليهم .

وكتب الى بعض اخوانه في الشكوى والعتاب :

انا اشكو اليك — جعلني الله فداك — دهراً خؤونا غدوراً ، وزمانا خدوعا غروراً ، لايمنح مايمنح الا ريث ماينتزع ، ولا يبقي فيما يهب الا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ، و يحلوماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يشفع مايبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه على ما شرط ، وان خاف منه وقسط . ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنم بقصده وظلمه ، ونعتد من اسباب المسرة ان لايجيئ محذوره مصمتا بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ماعرفناه سنة مبتدعة ، وشريعة متبعة ، واعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن بكل خلة من المكروه خلالا ، و بيان ذلك - جعلني الله فداك - انه كان يقنع من معارضته الالفين بتفريق ذات البين ، نقد انثنى ممنوا فيك بجميع ما اوغره ، وما اطويه من البلوى منك اكثر مما انشره ، واحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، والزمته جرما لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي اليه ، ولو انك اعنته وظاهرته وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخلق وليس فيمن زادو لكن فيمن نقص ، ثم اعرضت عني

اعراض غير مراجع ، واطرحتني اطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك اهلا للجميل حين لم تجدني هنـاك ، وانفذت من حل ماعقدت من غير جريمـة ، ونكث ماعهدت من غير جريرة ، فاجبني عن واحدة منها : ماهذا التغالي بنفسك ، والتعالي على صديقك ، ولم نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القـذاة ، ولم تلفظني من فيك ، وتمجني من حلقك ، وانا الحلال الحلو ، والبارد العذب ، و كيف لاتخطر ني ببالك خطرة ، وتصيرني من اشغالك مرة ، فترسل سلاما ان لم تتجشم مكاتبة ، وتذ كرني فيمن تذ كر ان لم تكن مخاطبة ، واحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حـتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذ كر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك ايضاً تتعجب من طمعي فيـك وقد توليت ، واستمالتي لك وقد ابيت ، ولاعجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال و يلين من هو اقسى منك قلبا فيعود الى الوصال ، وآخر ما اقوله ان ودي وقف عليك ، وحبس في شبيلك ، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا ، فجر به في المعاودة فانه في العود احمد .

و كتب الى بعض اخوانه متشوقا :

قد قرب — ايدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرك على تنائيه ، لان الشوق يمثلك ، والذكر يخيلك ، فنحن في الظاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون ، ولئن تفارقت الاشباح ، لقد تعانقت الارواح .

رسائله الى ابي عبد الله الطبري

كتب الى ابي عبد الله جوابا :

كتابي وانا بحال لو لم ينغص منها الشوق اليك ، ولم يرنق صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الاحوال الجميلة ، واعددت حظي منها في النعم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها في جسمي بصلاح ، وفي سعيي بنجاح ، لكن ما بقي ان يصفو لي عيش مع بعدي عنك ، و يخلو ذرعي مع خلوي منك ، و يسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك و كيف اطمع في ذاك وانت جزء من نفسي ، وناظم لشمل انسي ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفسي

متشعبة ذات انقسام ، وينفع انس ميت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك جعلني الله فداءك ، فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك في لفظك ، وما اقرظها فكل خصالك مقرظ عندي ، وما امدحها فكل امرك ممدوح في ضميري وعقدي وارجو ان تكون حقيقة امرك موافقة لتقديري فيك فان كان كذلك والا فقد « غطى هواك وما القى على بصري »

وكتب اليه ايضا :

وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، واوقفني مستريح الاعضاء والجوانح من جوى الاشتياق فان الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الاحوال ومضى على رسمه المعروف في تبديل الاشكال ، واعتقني من مخالتك عتقالا تستحق به ولاء ، وابرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عنقي ربقة الذل في اخائك ، بيدي جفائك ، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو ، وشن على ما كان يلتهب في صدرى من الوجد ماء اليأس ومسح اعشار قلبي فلاءم فطورها بجميل الصبر ، وشعب افلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء ، وتغلغل في مسالك

انفاسي فعرض عن النزاع اليك نزوعا ومن الذهاب فيك رجوعا و كشف عن عيني ضبابات ما القى الهوى على بصري ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظري حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليقتك فلم اجد الا منكراً ولم الق الا مستكبراً فوليت منها فراراً وملئت رعبا فاذهب فقد القيت حبلك على غاربك ورددت اليك ذمم عهدك .

ومنها : واما عذرك الذى جزمت بسطه فانقبض وحاولت تمهيده ونقريره فاستوفز واعرض ، ورفعت بضبعه فانخفض وقد ورد ولعتبه وجه يوءثر قبوله على رده وتزكيته على جرحه فلم يف بما بذلته من نفسك ، ولم يقم عند ظنك به . انى اوقد غطى التذمم وجهه ولف الحياء رأسه وغض الخجل طرفه ، فلم تتمكن من استكشافه وولى فلم نقدر على ايقافه ومضى يعثر في فضول مايغشاه من كرب حتى سقط ، فقلنا للفم ولليدين ، ثم امر بمطالعة صحبه فلم أجده الا تأبط شرا او تحمل وزرا .

وكتب اليه ايضا :

اخاطب الشيخ سيدي — اطال الله بقاءه — مخاطبة مجروح يروم الترويح عن قلبه ، و يريد التفريج من كربه فاكاتبه

مكاتبة مصدور يريد ان ينفث بعض مابه و يخفف الشكوى من اوصابه ، ولو بقيت من الصبر بقية اسلوت ، ولو وجدت في اثناء وجدي مخرجا يتخلله تجلد لامسكت . فقديما لبست الصديق على علاته ، وصفحت عن هناته ولكنني مغلوب على العزاء ، مأخوذ على عازتي في الاغضاء ، فقد سل من جفائك ماترك احتمالي جفاء ، وذهب في نفسي من ظلمك ما انزف حلمي فجعله هباء . وتولى علي من قبح فعلك في هجر يستمر على نسق وصد مطرد متسق مالو فض على الورى وافيض على البشر لامتلأت صدورهم فهل اقدر على الاقدار . وهل اكلك الى مراعاتك وهل تشكو الى ان الدهر حليفك على الاضرار وعقيدك على الافساد . اواشكوه اليك فانكما وان كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لبان ، وفي استيطاء مركب العقوق شريكي عنان فانه قاصر عنك في دقائق مخترعة ، انت فيها نسيج وحدك او قاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة . انت فيها وحيد عصرك ، انتما متفقان في ظاهر يسر الناظر و باطن يسوء الخابر وفي تبدل الابدال والتحول من حال الى حال وفي بث حبائل الزور ونصب اشراك الغرور وفي خلف الموعود والرجوع في الموهوب . وفي فظاعة اهتضام مايعير .

و بشاعة ارتجاع ما يمنح ، وقصد مشارة الاحرار ، والتحامل عند ذوي الاخطار ، وفي تكذيب الظنون والميل عن النباهة للخمول الى كثير من شيتكما التي اسندتما اليها، ومنيتكما التي تعاقدتما عليها، فاين هو ممن لا يجارى فيه نقض عرى العهود ونكث قوى العقود واني هو عن النميمة والغيبة، ومشي الضراء في الغيلة، والنفق بالنفاق في الحيلة ، واين هو ممن ادعى ضروب الباطل، والتحلي بما هو منه عاطل، وتنقص العلماء الافاضل ، هذا الى كثير من مساو منثورة انت ناظمها ، ومضار متفرقة انت جامعهـا ، انت ايدك الله ان سويته بنفسك، ووزنته بوزنك، اظلم منه لذويه، واعق منه لبنيه، وهبك على الجملة قد زعمت مفتريا عليه انه اشد منك قدرة واعظم بسطة ، واتم نصرة واطلق يدا في الاسـاءة ، وامضى في كل نكاية شباة واحد في كل عامـلة شداة واعظم في كل مكروه متغلغلا وآلف الى كل محذور متوصلا ، وان « الدهر ليس بمعتب من يجزع » وان العتبي منك مأمولة . ومن جهتك مرقوبة وهيهات فلو توهم انه لو كان ذا روح وجثمان ، مصور في صورة انسان ، ثم كاتبته استعطفه على الصلة واستعفيه من الهجر واذكره من المودة واستميل به الى رعاية المعتب واستخمد به ماشبه الفراق في نفسي

من اللوعة، واضرمه البعاد في صدري من الحرقة، لكان لا يستحسن ما استحسنته من الاضطراب عند جوابي، ولا يستجيز ما استجزته من الاستخفاف بكتابي .

وله فصل في هذه الرسالة وقد ذكر دعواه في العلم : وهبك افلاطون نفسه فاين ما سننته من السياسة فقد قرأناه فلم نجد فيه ارشادا الى قطيعة صديق ، فاحسبك ارسطاطاليس بعينه اين ما رسمته من الاخلاق فقد رأيناه فلم نر فيه هداية الى شيء من العقوق ، واما الهندسة فانها باحثة عن المقادير ، وان يعرفها من يجهل مقدار نفسه، وقدر الحق عليه وله، بل لك في رؤساء العربية منادح ومضطرب ، ولسنا نشاحك . لكن اتحب ان تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل ، وقد أغتربت في الذهاب بنفسك الى حيث لا تهتدي للرجوع عنه ، واما النحو فلن تدفع عن حذق فيه وبصر به ، وقد اختصرته اوجز اختصار وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، و يرضى بك اسوة ، فقلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضا يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضي

ذي اللهجة فاعرف قـدر حذقك فيه ، الا اني لا اراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه الى شط المتقارب .

وفي فصل منها ايضا :

وهبني سكت لدعواك سكوت متعجب ، ورضيت رضا متسخط ، ايرضى الفضل اجتذا بك باهدابه ، من يدى اهليه واصحابه ، واحسبك لم تزاحم خطابه ، حتى عرفت قلة فقره ، وقلة حصره ، فاصدقني هل انشدك :

لو بابا نين جاء يخطبهـا ضرج ما انف خاطب بـدم

وليت شعري باي حلي تصديت له ، وانت لو تتوجت بالـثريا ، وقلدت قلادة الفلك ، وتمنطقت بمنطقـة الجوزاء ، وتوشحت بالمجرة لم تكن الا عطلا ، ولو توضحت بانوار الربيع الزاهر ، وسرجت في جبينك غرة البدر البـاهر ، ما كنت الا غافلا ، سيما مـع قلة وفائك ، وضعف اخائك ، وظلمة ما نبصره من خصالك ، وتراكم الدجى في ضلالك ، وقد ندمت على ما اعد لك من دوني ، ولكن اي ساعة مندم ، بعد افناء الزمان في ابتدائك ، وتصفحي حالات الدهر في اختيارك ، وبعد تضييع

ما غرسته ، ونقضي ما اسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يوافق ثرى ثريا ، وجوا عذبا وماء رويا ، لم يرج زكاوه ، ولم يجر ماوءه ، ولم تتفتح ازهاره ، ولم تجن ثماره . وليت شعري كيف ملك الضلال قيادي حتى اشكل علي ما يحتاج اليه الممزوجان ، ولا يستغني عنه المتألفان ، وهي ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتلاف ، وحمتنا من اختلاف ، ونحن في طرفي ضدين ، و بين امرين متباعدين ، واذا حصلت الامر وجدت ما بيننا من البعاد ، اكثر مما بين الوهاد والنجاد ، وابعد مما بين البياض والسواد ، وايسر ما بيننا من النفار ، اقل ما بيننا من النضار ، واكثر ما بين الليل والنهار ، والاعلان والاسرار .

فصول من كلامه تجري مجرى الامثال

من اسر داءه ، وستر ظماه ، بعد عليه ان يبل من علله ، ويبل من غلله .

متى خلصت للدهر حال من اعتوار اذى ، وصفا فيه شرب من اعتراض قذي ؟

خير القول ما اغناك جده والهاك هزله .

الرتب لا تبلغ الا بتدرج وتدرب ولا تدرك الا بتجشم كلفة وتصعب .

المرء اشبه شيء بزمانه وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه .

قد يبذل المرء ماله في اصلاح اعدائه ، فكيف يذهل العاقل عن حفظ اوليائه .

هل السيد الا من تهابه اذا حضر ، وتغتابه اذا ادبر ؟

اجتنب سلطان الهوى وشيطان الميل وغلبة الارادة .

المزح والهزل بابان اذا فتحا لم يغلقا الا بعد العسر وفحلان اذا القحا لم ينتجا غير الشر .

مرضاة السلطان لا تغلو بشيء من الاثمان ولا يبذل الروح والجنان .

ينبغي للملك ان يستظهر على اعدائة بسبعة اجناس من الناس : فيتخذ الاحرار عدد ملكه ، والاعراب امناء جيشه ، والديلم اركان جنده والجيل حجرات عسكره ، والاتراك خواص اصحابه ، والهند حراس قلاعه والاكراد غلفا لسيوف اعدائه .

الابقاء على حشم السلطان وعماله ، عدل الابقاء على ماله ، والاشفاق على ديناره ودرهمه .

العاقل من افتتح في كل امر خاتمته ، وعلم من بدء كل شيء عاقبته .

وقال يوما على المائده : اطيب ما يكون الجمل ، اذا حلت الشمس الجمل .

أمثلة من شعره

كتب الى بعض اخوانه هـذه القصيدة ليعرضها على ابي الحسن العباسي ولعلها احسن ما قال :

قد ذبت غير حشاشة وذماء ما بين حر هوى وحر هواء
لا استفيق من الغرام ولااری خلوا من الاشجان والبرحاء
وصروف ايام اقمن قيامتي بنوى الخليط وفرقة القرناء
ومثير هيج لا يشق غباره فيما خباه مهيج الهيجاء
وجفاء خل كنت احسب انه عوني على السراء والضراء
ثبت العزيمة في العقوق ووده متنقل كتنقل الافياء
ذي ملة يأتيك اثبت عهده كالخط يرقم في بسيط الماء
ابكي و يضحكه الفراق ولن ترى عجبا كحاضر ضحكه وبكائي
نفسي فداؤك يا محمد من فتى نشوان من اكرومة وحياء
كأس من الشيم التي في ضمنها دركـ العلا عار من العوراء
عذب الخلائق قد احطت بخبره و بلوته في شدة ورخاء
و بلوت حاليه معا فوجدته في العود اكرم منه في الابداء
ابلغ رسالتي الشريف وقل له قدك اتئب اربيت في الغلواء

انت الذي شتت شمل مسرتي وقدحت نار الشوق في احشائي
وجمعت بين مساءتي ومسرتي وقرنت بين مبرتي وجفائي
ونبذت حقي عشرتي ومودتي وهرقت مائي خلتي واخائي
وثنيت آمالي على ادراجها ورددت خائبة وفود رجائي
فرجعت عنك بما يؤوب بمثله راجي السراب بقفرة بيداء
وعرضت ودي بالحقير ولم اكن ممن يباع وداده بلقاء
ورضيت بالثمن اليسير معوضة مني فهلا بعتني بغلاء
وزعمت انك لست تفكر بعدما علقت يداك بذمة الامراء
هيهات لم تصدقك فكرتك التي قد اوهمتك غنى عن الوزراء
لم تغن عن احد سماء لم يجد ارضا ولا ارض بغير سماء
وسألتك العتبى فلم ترني لها اهلا وجئت بغدرة الشوهاء
ورددت مموهة ولم يرفع لها طرف ولم ترزق من الاصغاء
واعار منطقها التذمم سكتة فتراجعت تمشي على استحياء
لم تشف من كمد ولم تبرد على كبد ولم تمنح جوانب داء
من يشف من داء بآخر مثله اثرت جوانحه من الادواء
داوت جوى بجوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاء
لا تغتنم اغضاءتي فلعلها كالعين تغضيها على الاقذاء

واستبق بعض حشاشتي فلعلني يوما اقيك بها من الاسواء
فلوان ما ابقيت من جسمي قذى في العين لم يمنع من الاغفاء
فلئن ارحت الي عازب سلوتي ووجدت في نفسي نسيم عزاء
لاجهزن اليك قبح تشكر ولانثرن عليك سوء ثنائي
ولا كسونك كل يوم حلة متروعة من حية رقشاء
ولاعضلن مودتي من بعدها حتى ازوجها من الا كفاء

و كتب الي ابى الحسن العباسي :

اشكو اليك زمانا ظل يعر كني عرك الاديم ومن يعدي على الزمن
وصاحبا كنت مغبوطا بصحبته دهرا فغادرني فردا بلا سكن
هبت له ريح اقبال فطار بها نحو السرور والجاني الي الحزن
نأى بجانبه عنى وصيرني من الاسى ودواعي الشوق في قرن
و باع صفو وداد كنت اقصره عليه مجتهدا في السر والعلن
و كان غالى به حينا فارخصه يا من رأى صفو ود بيع بالغبن
كانه كان مطو يا على احن ولم يكن في ضروب الشعر انشدني :
«إن الكرام اذا مااسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن»

و كتب اليه ايضا :

يامن تخلى وولى وصد عني وملا

واوسع العهد نكثا　　واتبع العقد حلا
ما كان عهدك الا　　عهد الشبيبة ولى
او طائفا من خيال　　الم ثم تولى
او عارضا لاح حتى　　اذا دنى فتدلى
الوت به نسمات　　من الصبا فتجلى
اهلاً بما ترتضيه　　في كل حال وسهلا
ليجزينك ودي　　بمثل فعلك فعلا
ان شئت هجراً فهجرا　　اوشئت وصلاً فوصلا
صبرت عني فانظر　　ظفرت بالصبر ام لا
اني اذا الخل ولى　　وليته ما تولى

وسئل بعض حاضري مجلسه عن قصة له فقال ولم يقصدوزنا :

اي جهد لقيته　　وشقاء شقيته

فقال ابن العميد قولوا على هذا الوزن شعرا ، وفي المجلس ابو الحسن العباسي وابن خلاد القاضي فقال ابو الحسن ابياتاً اولها :

بي غزال مقرطق　　شفني اذ هويته

وقال ابن خلاد ابياتا اولها :

يا خليلي ساعدا　　ني على ماده يته

وقال ابن العميد :

اي جهد لقيتـه وشقـاء شقيته
من نصيح اود من نصحه لي سكوته
قال صبراً ومادرى ان صبري رزيته
قلت عنك الملام ما باختياري هويتـه
لم اكن اجشم البلا ء لو انني كفيتـه
رب ثوب من المذ لة فيـه كسيته
ضل عـني تجلدي فكأني نسيته
في فؤادي هوى يحر قني لو وطيتـه
يا ابن خلاد الذي شاع في الناس صيته
انصف الهائم الذي يتجـافى مبيتـه
قل لمن اشبه المهـا مقلتـاه وليتـه
ثغره قـد اشت شمـ ل اصطباري شتيته
ليس يحيى المتيم الصـ ب الا مميتـه
انت قوتي ومـا بقا ء امرئ بأن قوته
اي ذنب سوى المذ لة في الحب جيته
ماأسيـغ السلو عنـ ك لو اني سقيتـه

كيف يرجو البقاء ان بان الماء حوته
ما اشاء السلو عنـ ـك فان شئت شيته
كل شيء رضيته من غرامي رضيته

وكتب الى ابي الحسن بن هندو صبيحة عرسه :

انعم اباحسن صباحا وازدد بزوجتك ارتياحا
قد رضت طرفك خاليا فهل استلنت له جماحا
وقدحت زندك جاهدا فهل استبنت له انقداحا
وطرقت منغلقا فهل سن الاله له انفتاحا
قد كنت ارسلت العيو ن صباح يومك والرواحا
وبعثت مصغية تبيت لديك ترتقب النجاحا
فغدت على بجملة لم توليني الا افتضاحا
وشكت الي خلاخلا خرسا واوشحة فصاحا
منعت وساوسها المسا مع ان تحس لكم صياحا

وكتب الى اخيه ابي محمد بن هندو وقد اهدى له مدادا :

ياسيدي وعمادي امددتني بمداد
كمسكنيك جميعا من ناظري وفوءادي
او كالليالي اللواتي رمينا بالبعاد

اهدى ابن خلاد الى ابن العميد شيئا من الاطعمة و كتب اليه في وصفها وابن العميد اذ ذاك في عقب مرض عرض له فكتب الى ابن خلاد قصيدة اولها :

قل لابن خلاد المفضي الى امد — في الفضل برز فيه اي تبريز
يغدى اهتزازك للعلياء كل فتي — موءخر عن مدى الغايات محجوز
ماذا اردت الى منهوض نائبة — مدفع عن حمى اللذات ملهوز
هززت بالوصف في احشائة قرما — مازال يهتز فيها غير مهزوز
لم يترك فيه فحوى ماوصفت له — من الاطايب عضوا غير محفوز
اهديت نبرمة(١) اهدت لآكلها — كرب المطامير في آب وتموز
ما كنت لولا فساد الحس تأمل في — جنس من السمن في دوشاب شهريز
هل غير شتى حبوب قد تعاورها — جيش المهاريس او نخز المناخيز
رمت الحلاوة فيها ثم جئت بها — تحذي اللسان بطعم جد ممزوز
لو ساعدتك بنو حواء قاطبة — عليه ما كان فيهم غير ملموز
اوقعت للشعر في اوصافها شغلا — بين القصائد تروى والاراجيز
لااحمد المرء اقصى مايجود به — اذا عصرناه اصناف الشواريز

---

(١) قال الثعالبي : اظن ان النبرمة شيء يجمع من الحبوب ويدق ويعجن بحلاوة .

مامتعة العين في خد تورده ... يزهى عليك بخال فيه مركوز
مستغرب الحسن في توشيع وجنته ... بدائع بين تسهيم وتطريز
يوفي على القمر الموفي اذا اتصلت ... يسراه بالكأس او يمناه بالكوز
اشهى اليك من الشيراز قد وضحت ... في صحن وجنتها خيلان شونيز
وقد جرى الزيت في مثنى اسرتها ... فضارعت فضة تغلي بابريز
ماذا السماح بتقريظ وتزكية ... وقد بخلت بمذخور ومكنوز

ومنها :

لاغرو ان لم ترح للجود راحته ... فالبخل مستحسن في شيمة الخوزي

واهدى ابن خلاد اليه كتابا في الاطعمة وابن العميد ناقه من علة كانت به فكتب الى ابن خلاد قصيدة منها :

فهمت كتابك في الاطعمه ... وما كان نولي ان افهمه
فكم هاج من قرم ساكن ... واوضح من شهوة مبهمه
وارث في كبدي غلة ... من الجوع نيرانها مضرمه
فكيف عمدت به ناقها ... جوانحه للطوى مسلمة
خفوق الحشا ان تصخ تستمع ... من الجوع في صدره همهمه
تتيح له شرها موجعاً ... وتغري به نهمة مؤلمه
فاين الاخاء وما يقتضيه ... منك باسبابنا المبرمه

واين تكرمك المستفيض — فينا اذا غاضت المكرمه
وهلا اضفت الى ماوصفت — شيئاً نهش لان نطعمه
يمد الصديق اليه يداً — اذا ماراه و يشحي فمه
واين شوازيزك المرتضا — ة اذاماتفاضلت الاطعمه
واين كواميخك المجتبا — ة دون الاطايب بالتكرمه
وهل انت راض بقولي اذا — ذكرت دعوه فما الأمه
اذا المرء اكرم شيرازه — فلا اكرم الله منا كرمه
وكيف ارتقابي بقيا امريء — اذا ليم اعتب بالنبرمه
فان كان يجزيك نعت الطعا — م اذا الجوع ناب اذاه فمه
اذا جعت فاعمد لمسموطة — بجوذابة الموز مستفرمه
متى قستها بالمنى جاءتا — سواء كما جاءت الابلمه
وبز السرابيل عن افرخ — تخال بها فلذ الاسنمه
تهب النفوس الى نيئها — كأن النفوس بها مغرمه
فلا الفم ان ذاقه مجه — ولا الطبع ان رازه استوخمه
وذلك وسطا اجاد الصنا — ع تلفيق شطريه بالهندمه
وعالى على دفه هيدبا — كثيفا كما تحمل المقرمه
سدى من نقانق نيرت بهن — فاضحت نسائجها ملحمه

فمن صدر فائقة قد ثوت ومن عجز ناهضة ملقمه
ودنر بالجـوز اجوازه ودرهم باللوز مادرهمه
وقانى بزيتونـها والجبن صفائح من بيضة مدعمه
فمن اسطر فيه مشكولة ومن اسطر كتبت معجمه
وفوف بالبقل اعطافـه فوافى كحاشية معلمه
موشى تخال به مطرفـا بديع التفاويف والنمنمه
اذا ضاحتك تبـاشيره اضاءت له المعدة المظلمه
وهاك خبيصا اذا ماافترحـ ـت على العبد انعامه انعمه
اذا سار في ثغرة سدهـا او انساب في خال لاءمه
فان شئت فاخل به مفردا وان شئت فادع اليه لمـه
واياك تهدم ماقد بنـا ه هدما وتنقض ماابرمه
فان لم تجد ذاك يجدي عليـ ـك اذا ما سغبت فقل لي لمه
تعد من الجود وصف الطعا م ولست تقول بان تطعمه
وتحظر ماقـد احل الاله ضرارا وتطلق ماحرمه
فهل نزلت في الذي قد شرعـ ـت على احـد آية محكمه
وهل سنة فيـه مأثورة رواها لاشياخكم علقمه
وقلت تواصوا بصبر جميل فاين ذهبت عن المرحمه

ومن عجب حاكم ظالم يرجى ليحكم في مظلمه

وقال في الغزل من قصيدة :

هل البث الا ماتحملنيه ام البرح الا ماتكلفنيه
متى علقت نفسي حبيبا تعلقت به غير الايام تسلبنيه
شفيعي اذا استشفعت غير مشفع ووجهي اذا وجهت غير وجيه

وقام على رأسه غلام حسن يظلله من الشمس فقال :

قامت تظللني من الشمس نفس اعز علي من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

وقال في فصد معشوقه :

ويح الطبيب الذي جست يداه يدك ما كان اجهله فيما قد اعتمدك
بأي شيء تراه كان معتذرا من مسه بحديد مؤلم جسدك
لو ان الحاظه كانت مباضعه ثم انتحاك بها من رقة فصدك

وقال من قصيدته الهرية التي عارض فيها ابن العلاف :

ياهر فارقتنا مفارقة عمت جميع النفوس بالثكل
لو كان بالحادثات لي قبل اذا اتاك الصريخ من قبلى
يامثلا سائرا اذا ذكر الحسن ن تركت الحسان كالمثل
وقيل هل تفتديه ان قبل الدهر فداء فقلت حيهل

افديه بالصفوة الكرام من الا   خوان دون الاخدان والخلل
بل بمحل الكرى ومعتلج الفكـ   ـر وحب القلوب والمقل
بل بسكون الوجيب يجلبه الامـ   ـن الى قلب خائف وجل
بل بحلول الشفاء تجنبه الصحـ   ـة بعد الاوصاب والعلل
بل ببلوغ المنى وقاصية البغـ   ـية عفوا ونهبة الامل

ومما يتمثل به من شعره قوله :

آخ الرجال من الابا   عد والاقارب لاتقارب
ان الاقارب كالعقا   رب بل اضر من العقارب

وقوله :

لن يصرف الدهر من سجيته   ارب اريب وحول ذي حيل
اي معين صفا على كدر الدهـ   ـر واي النعيم لم يزل

وقوله :

وللرأي زلات يظل بها الفتى   مركبة فوق الثنايا انامله

وقال في الشعر الاسود والشيب :

رأيت في الوجه طاقة بقيت   سوداء عيني تحب رؤيتها
فقلت للبيض اذ تروعها   بالله الا رحمت غربتها
فقل لبث السوداء في بلد   تكون فيه البيضاء ضرتها

وقال في المغني القرشي :

اذا غناني القرشي يومـا وعناني بروءيته وضربه
وددت لو ان اذني مثل عيني هناك وان عيني مثل قلبه

وقال فيه ايضا :

اذا غنى لنا امـا حشوت مسامعي صما
وان ابصرت طلعته كحلت نواظري بعمى

(شعره في المعمى)

قال في السفرجل :

يقولون خطب من البين جلا ولم ار سير الخليط استقلا
وقـد لقبوه نوى غربـة ولم ار اقرب منه محلا
وبزت سرابيـله عنـوة فالفي لمـا تعرى ى تحلا
وافرد من بين اترابـه فما غض من حسنه ان تخلى
وزل فقلنا لعـا ناعشـا لعـال اذا ما نعلى تدلى
تزيـد مكاسره لذة اذا ما الغمام عليه استهلا
اذا نال منه السليم استقـل وان نال منه السقيم استبلا
اذا ما امروء مل روح الحيا ة فحاشا لذلك من ان يملا

وقال في ماء الورد :

قل للاديب ابي الحسيـ ن اتتك صماء الغير
نكراء في حالاتها لذوي البصائر معتبر
دهياء يعترف الضمير ر بها و ينكرها البصر
ماذا ترى في درهم قد مسه قدّ الابر
وتخفه من بعده تباشرا طرفاً وزر
ازرى به وسط الردى وهو الحياة المشتهر
فاكشف لنا عن سره بلطيف حدثك والنظر

وقال في الشمس :

ماذا ترى يا ابا العباس في عجب تشابهت منه اولاه واخراه
ترى مقدمه شروى مؤخره حسنا ويمناه في تمثال يسراه
من حيث واجهته ارضاك منظره وكيف قابلته اغناك مغناه
يهوى المباعد منه قرب منزله حتى اذا ماتغشاه تحاماه

ابنه ابو الفتح

٣٣٧ — ٣٦٦

ولد ابو الفتح علي ابن ابي الفضل ابن العميد سنة ٣٣٧ ويغلب على الظن ان يكون ولد في الري لان مولده كان بعد ان تولى ابوه ابن العميد وزارة ركن الدولة بتسع سنوات وفي الري كانت اقامة ابن العميد منذ صار وزيراً ·

نشأ ابو الفتح في كنف ابيه وناهيك بدار ابن العميد من دار جمعت ابهة الوزارة وكانت كعبة اهل العلم والادب فشب على الترف والنعيم واقبل على العلوم والآداب وكان فطناً ذكياً وادبه ابوه فاحسن تأديبه واختار له ابا الحسين ابن فارس اللغوي مهذبا فاحسن تهذيبه وجالس به ادباء عصره مبالغة في تثقيفه وكان حريصاً على الوقوف على جميع مايفعله ابنه في السر والعلن فجعل جماعة من ثقات ابي الفتح في صباه يشرفون عليه في منزله ومكتبه ويشاهدون احواله ويحصون انفاسه وينهون الى ابيه جميع مايأتيه ويقوله ويفعله · فرفع اليه بعضهم : ان ابا الفتح

اشتغل ليلة بما يشتغل به الاحداث من عقد مجلس مسرة واحضار
الندماء في خفية شديدة واحتياط من ابيه وانه كتب الى من
سماه يستهديه شرابا فحمل اليه مايصلحهم من الشراب والنقل
والمشموم . فدس ابوه الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة
عن ابي الفتح فاذا فيها بخطه : (بسم الله الرحمن الرحيم قد اغتنمت
الليلة ـ اطال بقاء سيدي ومولاي ـ رقدة من عين الدهر وانتهزت
فيها فرصة من فرص العمر وانتظمت مع اصحابي في سمط الثريا
فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام عدنا كبنات نعش
والسلام) فاستطير ابوه فرحا واعجابا بهذه الرقعة البديعة وقال :
الآن ظهر لي اثر براعته ووثقت بجريه في طريقي ونيابته منابي
ووقع له بالفي دينار .

وحكى ابو الحسين ابن فارس قال كنت عند الاستاذ ابي الفتح
في يوم شديد الحر فرمت الشمس بجمرات الهاجرة فقال لي ماقول
الشيخ في قلبه ؟ فلم احر جوابا لاني لم افطن لما اراد فلما كان بعد
هنيهة اقبل رسول والده الاستاذ الرئيس يستدعيني الى مجلسه
فقمت اليه فلما مثلت بين يديه تبسم ضاحكاً اليَّ وقال ! ماقول
الشيخ في قلبه ؟ فبهت وسكت ومازلت افكر حتى تنبهت على

انها ارادا الخيش (١) فكأن من كان يشرف على ابي الفتح من جهة ابيه الاستاذ اتاه بتلك اللفظة في تلك الساعة ولفرط اهتزازه لها اراد مجاراتي وقرأت صحيفة السرور من وجهه اعجابا بها ثم اخذت اتحفه بنكت نثره وملح نظمه وكان مما اعجب به وتعجب منه واستضحك له حكايتي رقعة له وردت علي وصدرها (رقعة الشيخ اصغر من عنفقة بقة واقصر من انملة نملة)

وهكذا فقد ظهرت نجابته منذ حداثته فمن شعره وهو في المكتب قوله من قصيدة في ابيه اولها :

اليل هو ام شعر وبرق هو ام ثغر
وحر الصدر ما ضمنـ ـت الاحشاء ام جمر
ويهماء كمثل البحـ ـر يرتاع لها السفر
تعسفت على هول وتحتي بازل جسر
الى من وجهـه بدر ومن راحته بحر
ومن جدواه مـد للـ ـورى ليس له جزر

(١) مروحة الخيش نسيج خشن من الكتان كشراع السفينة يعلقها اهل العراق في سقف البيت ويعملون لها حبلا تجربه مبلولة بالماء فاذا اراد الرجل ان ينام جذب حبلها فيهب منها نسيم بارد يذهب هوى الحر ويستطاب معه النوم .

هو الغيث هو الليث　　هو الفخر هو الذخر
لامر مظلم يخشى　　وخطب فادح يعرو

وكتب ابو الفتح الى ابي الطيب المتنبي لما كان عند عضد الدولة كتابا مضمونه الشوق الى لقائه فاجابه المتنبي :

بكتب الانام كتاب ورد　　فدت يد كاتبه كل يد
يعبر عما له عندنا　　ويذكر من شوقه مانجد
فاخرق رائيه ما رأى　　وابرق نافده ما انتقد
اذا سمع الناس الفاظه　　خلقن له في القلوب الحسد
فقلت وقد فرس الناطقين　　كذا يفعل الاسد ابن الاسد

سار ابو الفتح على سنن ابيه في العلم والادب والمروءة والفضل الا انه كان ميالاً للمرح والدعة مأخوذاً بمظاهر التيه والعظمة بالرغم من ان اباه كان يستنكر ذلك منه ويراه وبالاً عليه وعلى اسرته قال ياقوت في معجم الادباء : حدث احد اصحاب ابي الفضل ابن العميد المختصين به قال كان ابو الفتح ابن ابي الفضل يباكر اباه في كل يوم ويدخل اليه قبل كل احد فاتفق ان دخل يوما وانا جالس عنده فلما رآه مقبلاً في الصحن وشاهد عمته وكانت ديلمية ومشيته وهو يختال فيها ويسرف في تلويها عجب من ذاك

وقال لي اما ترى الى هذه العمة وهـذه المشية في مخالفتها لعادتنا ومفارقتها طريقتنا فقلت قد رأيت وان رسم الاستاذ ان اخاطبه فيها وانهاه عنها فعلت فقال لاتفعل فانه قصير العمر وما احب ان ادخل على قلبه هماً ولا امنعه هوى ·

وروي ان اباه وجد له رفعة كتبها الى بعض من ينبسط اليه وفيها :

اديبنا المعروف بالكردي · · · · · · · ·

· · · · · · · · · · · · · · · · · · · ·

فغضب وقال امثل ولدي يكتب مثل هذا الفحش والفجور ثم قال اما والله لولا ولولا ولولا ثم امسك قال ياقوت كأنه يشير الى ماحكم له من سوء العاقبة وقصر العمر ·

وكان ابوه يقول في مجلس خلواته قبيل موته بهمذان : مايهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم الا هذا الصبي يعني ابنه ويقول : ماقتلني الا جرع الغيظ التى تجرعتها منه ·

قال ابو علي مسكويه في تجارب الامم : كان ابو الفتح لقلة حنكته ونزق شبابه وتهوره في الامور يقدم على مالا يقدم عليه ابوه ويحب ان يسير في خواص الديلم ويمشون بين يديه ويختلط

بهم اختلاط من يستميل بقلوبهم ويخلع عليهم خلعا كثيرة ويحمل رؤساءهم وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقال ويريد بجميع ذلك ان يسلموا له الرئاسة حتى لا يأنف احد من تقبيل الارض بين يديه والمشي قدامه اذا ركب . وكان جميع ذلك مما لا يؤثره الاستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ويعلمه ان ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق اليه

***

لما توفي ابن العميد سنة ٣٦٠ قام ابنه ابو الفتح مقامه في الوزارة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة قال ابو علي مسكويه : صار ابو الفتح وزيراً وصاحب جيش على رسم والده سنة ٣٦١ وكان ركن الدولة قد شاخ وسئم ففوض اليه الامور كلها وكان فيه مع رجاحته وفضله وادب الكتابة وتيقظه وفراسته نزق الحداثة وسكر الشباب وجرأة القدرة فتطلعت نفسه الى اظهار الزينة الكثيرة وكان يسرف في ركوب الاهواء فجلب عليه ذلك ضروب الحسد من ضروب السلاطين واصحاب السيوف والاقلام فكان يركب في موكب عظيم ويغشى الدار والديوان فاذا خرج تبعه الجميع وخلت دار الامارة .

واتفق في ايام وزارة ابي الفتح ان استعصى الاتراك في بغداد على عز الدولة بختيار ابن معز الدولة فارسل الى عمه ركن الدولة يستعين به فامر ابا الفتح بالمضي في جيش كثيف من الري الى شيراز والمسير في صحبة ولده عضد الدولة لانجاد عز الدولة فسارا الى بغداد واعادا الاحوال الى ما كانت عليه فطمع عضد الدولة بملك بغداد ولكن اباه ركن الدولة منعه وامره بالخروج منها في خبر يطول تفصيله ·

وكان ابو الفتح لقي في بغداد اقبالا عظيما فوصل الى حضرة الخليفة الطائع لله فخلع عليه ولقبه ذا الكفايتين وكناه في مكتوبه بابي الفتح وتنجز منه خلعا ولقبا لفخر الدولة واقطع من نواحي السواد ضياعا كثيرة ودعاه ابو طاهر ابن بقية عدة دعوات وملأ عينيه بالهدايا والملاطفات وقال في بعض الايام لابد ان اخلع على ابن العميد في مجلسي ودعاه فلما قعد واكل وجلس على الشرب اخذ ابن بقية بيده فرجية ورداء في غاية الحسن والجلالة ووافى بهما الى ابن العميد وقال له قد صرت ايها الاستاذ جامدارك فانظر هل ترتضيني لخدمتك وطرح الفرجية عليه وقدم الرداء بين يديه فاخذه ولبسه ·

وكان ابو الفتح مدة اقامته في بغداد يعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما وللادباء يوما وللمتكلمين يوما وللمتفلسفين يوما وفرق اموالا خطيرة ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ ووصل ووهب وجرت في مجالسه غرائب العلم وبدائع الحكمة وتفقد النابهين من اهل العلم والادب واراد استصحابهم معه الى الري .

خرج عضد الدولة من بغداد مكرها في شوال سنه ٣٦٤ وهو واجد على ابي الفتح فكان يقول خرجت من بغداد وانا زريق الشارب (١) وابن العميد الوزير ذو الكفايتين ابو الفتح . وشرط على ابي الفتح ان لا يقيم ببغداد بعده الا ثلاثة ايام ثم يلحق بوالده بالري .

قال ابو علي مسكويه . لما خرج عضد الدولة الى فارس طابت بغداد لابي الفتح ابن العميد واحب الخلاعة والدخول مع بختيار في افانين لهوه ولعبه ووجد خلو ذرع من اشغاله وراحة من تدبير امر صاحبه ركن الدولة مدة وحصلت له زبازب (٢) ودور على الشط وستارات غناء محسنات وتمكن من اللذات وعرف

(١) لقبه اهل بغداد بذلك لانه كان ازرق العين (٢) الزبازب ضرب من السفن .

بختيار ماصنع من الجميل في بابه وانه خلص من مخالب السبع
بعد ان افترسه وان سعيه بين ركن الدولة وبينه هو الذي رد عليه
روحه وملكه فبسطه وعرض عليه وزارته وتمكينه من ممالكه على رسمه
والا يعارضه في شيء يدبره ويراه فلم يجبه الى ذلك وقال لي والدة
واهل وولد ونعمة قد ربيت منذ خمسين سنة وهي كلها في يد
ركن الدولة ولا استطيع مفارقته ولا يحسن بي ان يتحدث عني
بمخالفته ولا يتم ايضا لك ذلك مع ماعاملك به من الجميل
ولكني اعاهدك اذا قضى الله على ركن الدولة ماهوقاض على جميع
خلقه ان اصير اليك مع قطعة عظيمة من عسكره فانهم لايخالفوني
وركن الدولة مع ذلك هامة اليوم اوغد وليس يتأخرامره . واستقر
بينهما ذلك سرا لا يطلع عليه الا محمد بن عمر العلوي فانه توسط بينهما
واخذ عهد كل واحد منهما على صاحبه ولم يظهر ذلك لاحد حتى
حدثني به محمد بن عمر بعد هلاك ابي الفتح ابن العميد . ولكن
الغلط القبيح من ابى الفتح كان انه اقام مدة طويلة ببغداد
وطمع في املاك اقتناها هناك واقطاعات حصلها واصول اصلها
على العود اليها ثم التمس لقبا من السلطان وخلعا واحوالا لاتشبه
مافارقه عليه عضد الدولة ثم استخلف ببغداد بعض اولاد التناء

بشيراز يعرف بابي الحسين ابن ابي شجاع الارجاني من غير اختبار له ولا خلطة قديمة تكشف له امره فلما خرج كانت تلك الاسرار التي بينه وبين بختيار والتراجم بينهما تدور كلها على يده ويتوسطها ويهدي الى عضد الدولة جميعها ويتقرب اليه بها فلما عرف عضد الدولة حقيقة الامر ومخالفة ابي الفتح ابن العميد له ودخوله مع بختيار فيما دخل فيه مع اللقب السلطاني الذي حصله وهو ذو الكفايتين ولبسه الخلع وركوبه ببغداد مع ابن بقية في هذه الخلع عرف مكاشفته اياه بالعداوة وكتم ذلك في نفسه الى ان تمكن منه فاهلكه .

عاد ابو الفتح من بغداد الى الري وبقي في الوزارة الى ان توفي ركن الدولة في المحرم سنة ٣٦٦ فورد ابنه مؤيد الدولة من اصبهان الى الري في صفر وخلع على ابي الفتح واستوزره في شهر ربيع الاول وكان مع مؤيد الدولة الصاحب ابن عباد فكره ابو الفتح موضعه وبعث الجند على الشغب حتى هموا بقتله وتلطف ابن عباد في خلال ذلك لابي الفتح وقال له :

انا اتظلم منك اليك واتحمل بك عليك وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشارد من حلمك وعطفت

على الشائع من كرمك ولني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك واحضرني بين امرك ونهيك وسمني برضاك فاني صنيعة والدك واتخذني بهذا صنيعة لك وليس يجمل ان تكر على مابنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ومتى اجبتني الى هذا وآمنتني فاني اكون خادمك بحضرتك وكاتبا يطلب الزلفة عندك في صغير امرك و كبيره وفي هذا اطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك اعدائي علي . فقال في الجواب والله لاتجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الامير ولا يكون لك اذن علي ولا عين عندي وليس لك مني رضى الا بالعود الى مكانك من اصبهان والسلو عما تحدث به نفسك .

فامر موءيد الدولة الصاحب بالعودة الى اصبهان واسرذلك في نفسه الى اشياء كان ينبسط فيها ابو الفتح يحمله عليها نزقة الشباب وانضاف الى ذلك تغير عضد الدولة عليه و كثرة ميل القواد والعساكر اليه وامتدت العين الى ضياعه وامواله وخزائنه واسبابه ودوره وعقاره و بساتينه فانه كان يملك من ذلك مايفوت الوهم فكتب عضد الدولة الى اخيه موءيد الدولة بالقبض عليه واستصفاء امواله وتعذيبه .

واتفق ان ابا الفتح استدعى يومـا ندماءه وعبأ لهم مجلسا عظيما واظهر من الزينة وآلات الفضة والذهب والصيني وما شاكله مايفوت الحصر وشرب واستفزه الطرب وكان قد شرب يومه وليلته فعمل شعرا غني به وهو :

دعوت المنى ودعوت العلى   فلما اجابا دعوت القـدح
وقلت لايام شرخ الشباب   الا ان هذا اوان الفرح
اذا بلغ المرء آماله   فليس له بعدهـا مقترح

فلما غني بالشعر استطابه وشرب عليه الى ان سكر وقال لغلمانه غطوا المجلس ولا تسقطوا منه شيئا لاصطبح في غد عليه وقال لندمائه باكروني وقام الى بيت منامه وانصرف عنه الندماء فدعاه مؤيد الدولة في السحر فلم يشك انه لمهم فقبض عليه في يوم الاحد سابع شهر ربيع الاخر سنة ٣٦٦ وادخلت عليه الشهود فشهدوا عليه ببيع املاكه جميعها وضياعه ومستغلاته من مؤيد الدولة فلما حضر العدول اخرج اليهم كتابا كان كتبه بطلاق امرأته ابنة جستان واشهدهم طائعا على نفسه بذلك وقيل انه انما فعل ذلك خوفا من مؤيد الدولة ان يفضحه فيها فاراد ان ينفصل منها وتبين منه لئلا يلزمه العار . وحمل في تلك الليلة الى قلعة استوناوند وبدرت منه كلمات في حق عضد

الدولة نمت اليه فزادت في استيحاشه منه فانهض من حضرته من تكفل بتعذيبه واستخراج امواله والتنكيل به فاول ماعمل به ان سمل احدى عينيه ثم نكل به وجز لحيته وجدع انفه وعذب بانواع من العذاب ففي تلك الحال يقول وقد يئس من نفسه واستاذن في صلاة ركعتين فصلاهما ودعا بدواة وقرطاس وكتب :

بدل من صورتي المنظر لكنه ما غير المخبر
ولست ذا حزن على فائت لكن على من لي يستعبر
ووالـه القلب لما مسني مستخبر عني ولا يخبر
فقل لمن سر بما ساءنا لابد ان يسلك ذا المعبر

ولما ايقن ان القوم يريدون دمه وانه لاينجو منهم وان بذل ماله مد يده الى جيب جبة عليه ففتقه عن رقعة فيها ثبت مالا يحصى من ودائعه وكنوز ابيه وذخائره فالقاها في كانون نار بين يديه وقال للموكل به اصنع ماانت صانع فوالله لا يصل من اموالي المستورة الى صاحبك دينار واحد فما زال يعرضه على العذاب الى ان تلف ولما حس بالقتل قال :

راعوا قليلا فليس الدهر عبدكم كما تظنون والايام تنتقل

وكان قد اغري قبل القبض عليه بانشاد هذين البيتين

ملك الدنيا اناس قبلنا　　رحلوا عنها وخلوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا　　ونخليها لقوم بعدنا

وقال في الحبس :

مابال قومي يجفوني اكابرهم　　الان اطاعتهم الايام والدول
الان تقاصر عنى الحال تقطعني　　عراهم ساء ما شاؤا وما فعلوا
اغراهم ان هذا الدهر اسكتنى　　عنهم وتنطق فيه الشاء والابل
قد ما رميت فلم تبلغ سهامهم　　واخطأ الناس من مرميه زحل

ووجد على حائط مجلسه بعد قتله :

ملك شد لي عرى الميثاق　　بامان قد سار في الآفاق
لم يحل رأيه ولكن دهري　　حال عن رأيه فشد وثاقي
فقرى الوحش من عظامي ولحمي　　وسقى الارض من دمي المهراق
فعلى من تركته من قريب　　او حبيب تحية المشتاق

ورثاه ابو بكر الخوارزمي بقصيدة منها :

اهوى القيامة لا لشيء غير ان　　القاك فيها والانام حضور
واحب فيك الموت علما انني　　بعد الممات الى اللقاء نصير

وهكذا فقد اندثر بنو العميد بمقتل ابي الفتح وفيهم يقول

بعض الشعراء :

مررت على ديار بني العميد   فالفيت السعادة في خمود
فقل للشامت الباغي رويدا   فانك لم تبشر بالخلود

***

وابو الفتح بعد اديب يسلك طريق والده في الكتابة والشعر على ان شعره اعذب من شعر ابيه قال ابو حيان التوحيدي « واما ابو الفتح ذو الكفايتين فانه كان شابا ذكيا متحركا حسن الشعر مليح الكتابة كثير المحاسن ولم يظهر كل ما كان في نفسه لقصر ايامه واشتعال دولته وطفوها بسرعة »

وقال ابو الحسين ابن فارس جرى في بعض ايامنا ذكر ابيات استحسن الاستاذ الرئيس وزنها واستحلى رونقها وانشد جماعة ممن حضر ما حضرهم على ذلك الروي وهو قول القائل :

لئن كففت والا   شققت منك ثيابي

فاصغى الينا ابو الفتح ثم انشدني في الوقت :

يامولعا بعذابي   اما رحمت شبابي
تركت قلبي قريحا   نهب الاسى والتصابي
ان كنت تنكر ما بي   من ذلتي واكتئابي

فارفع قليـلا قليـلا عن العظام ثيابي

ومن شعره قوله :

عودي وماء شبيبتي في عودي لا تعمدي لمقاتل المعمود
وصليه ما دامت اصائل عيشه تؤويه في فيء لها ممدود
ما دام من ليل الصبى في فاحم رجل الذرى فينان كالعنقود
قبل المشيب فطارقات جنوده يبدلنه يققا بسحم سود

وقوله من نيروزية في ابيه :

ابشر بنيروز اتاك مبشرا بسعادة وزيادة ودوام
واشرب فقد حل الربيع نقابه عن منظر متهلل بسـام
وهديتي شعر عجيب نظمـه ومديحه يبقى على الايام
فاقبله واقبل عذر من لم يستطع اهداء غير نتيجـة الافهام

وقوله في اترجة اهداها الى ابيه :

اتتك صفراء تحكي لون ذي مقة وريح راح حساها شادن خنث
زففتها حين زفت لي على امل اني غلامك لا مين ولا عبث

وقال :

اذا انا بلغت الذى كنت اشتهي واضعافه الفا فكلني الى الخمر
وقل لنديمي قم الى الدهر فاقترح عليه الذي تهوى ودعني مع الدهر

وقال :

اين لي من يفي بشكر الليالي　　اذ اضافت خيالها وخيالي
لم يكن لي على الزمان اقتراح　　غيرها منية فجاد بها لي

وقال :

يقول لي الواشون كيف تحبها　　فقلت لهم بين المقصر والغالي
ولولا حذاري منهم لصدقتهم　　وقلت هوى لم يهوه قط امثالي

ومن شعره :

اني متى اهزز قناتي تنتثر　　اوصالها انبوبة انبوبا
ادعو بعاليها العلى فتجيبني　　واقي بحد سنانها المرهوبا

وقوله من قصيدة في عضد الدوله اولها :

عتبت على الايام لو عرفت عتبا　　وعاتبتها لو اعقبت ذنبها عتبي
قضت بيننا احكامها البين كلما　　طلبن بنا شرقا غربن بها غربا
تحجب عني الشمس من نور وجهها　　وتمنح رياها الركائب والركبا

ومنها :

وكنت اظن الحب قبل خلابة　　فها هو ذا يفري بمخلبه الخلبا
تدور السقاة بالاباريق بيننا　　فنحسبها سربا يزجي لنا سربا

ومنها :

وقد نظمت شمل العصابة روضة　　منورة النوار تحسبها عصبا

ومنها في وصف النجائب :

متى لم انل اقصى المنى بنجابها　　فلا نهضت نجبا تسير بنا نجبا
ولا رحلت نحوي العفاة رحالها　　ولا كن لي ما بين آمالها نهبا
ولا كنت عبد الذي الدهر عبده　　اخذ النجوم بعد صحبته صحبا

وقوله من قصيدة اخرى فيه اولها :

افضت عقود ام افيضت مدامع　　وهذي دموع ام نفوس هوامع
على الملك قوام وللدين حافظ　　وللمال وهاب وللجار مانع
اسود ولكن الحراب عرينها　　شموس ولكن الصفوف مطالع
اشاحوا وماشحوا ونابوا ومانبوا　　وكان لهم تحت المنايا منافع

ومنها في ذل الاعداء :

اذاقهم ذل الهزيمة فانحنت　　قناة الظهور واستقام الاخادع
وكان لهم لبس المعصفر عادة　　نخاطت لهم منه السيوف القواطع

ومنها :

بطرتم فطرتم والعصا زجر من عصى　　وتقويم عبد الهون بالهون نافع

ومنها :

تبسمت والخيل العتاق عوابس　　واقدمت والبيض الرقاق هوالع

خدعت بصبح النصر ليل جموعهم | وكيف بقاء الليل والصبح صادع
فما الصبح مناد ولا الليل خاذل | ولا النصل خوان ولا السهم ظالع

ومنها في وصف الشعر :

ومقترحات في القوافي بداءة | بدائع للاحسان فيها ودائع
كلام شكورا طلقت من عنانه | صنائع يخجلن النهار نواصع
خدمت بقولي ذا ومن قبل قوله | خدمت وغى والقول للفعل شافع

وقال من اخرى وقد ذكر الشعر :

فان كان مسخوطا فقل شعر كاتب | وان كان مرضيا فقل شعر كاتبي

وقال :

دعاني في انبلاج الليل صبح | فنادى قم فحي على الفلاح
فقلت له ترفق يا منادي | أليس الصبح مسود النواحي
فثغري والمدام وحسن وجهي | صباح في صباح في صباح

ومن كلام ابي الفتح وقد جرى حديث ابي اسحق الصابي :

« ذاك رجل له في كل طراز نسج ، وفي كل حومة رهج ، وفي كل فلاة ركب ، ومن كل غمامة سكب ، الكتابة تدعيه باكثر مما يدعيها ، والبلاغة تتحلى به باحسن مما يتحلى هو بها »

الفهرس

جدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	سطر	صفحة
بيصاء	بيضاء	٨	٧
مطاهر	مظاهر	٩	٧
يها	فيها	١٥	٨
تركستان	وتركستان	١٦	٨
واحمد	وابو الحسين احمد	١٠	١٥
من أيام	من ايام	٢	٢٤
صر	نصر	٥	٢٤
خبار	اخبار	١٥	٢٤
طوبلا	طويلا	٢	٢٩
مناريح	مناذح	١١	٤١
لمت	قلت	١٦	٤١
قال صحب	قال صاحب	١١	٦٥
ممن صاخب	ممن صحب	١١	٦٥
يتعلثم	يتلعثم	١٥	٦٥